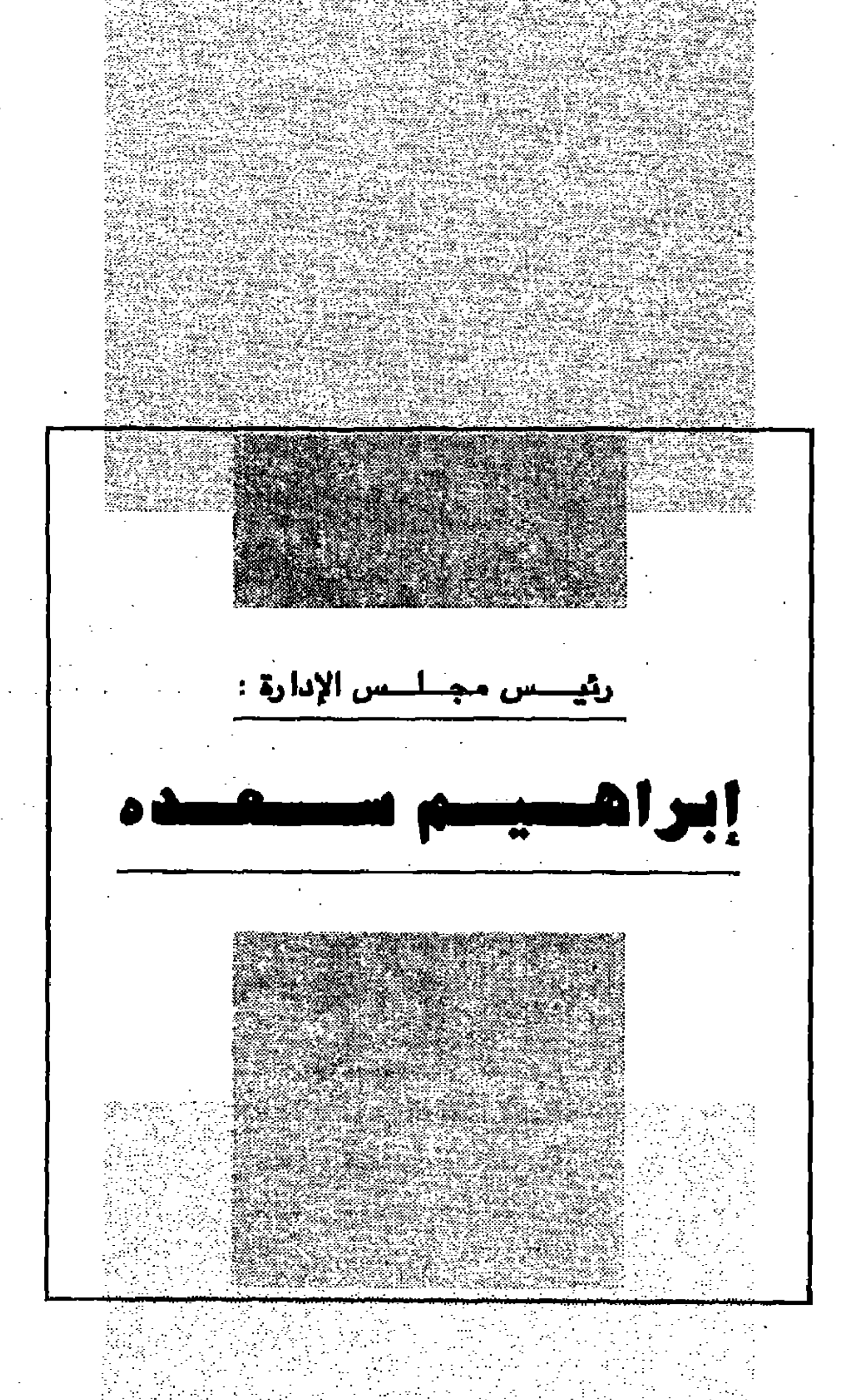
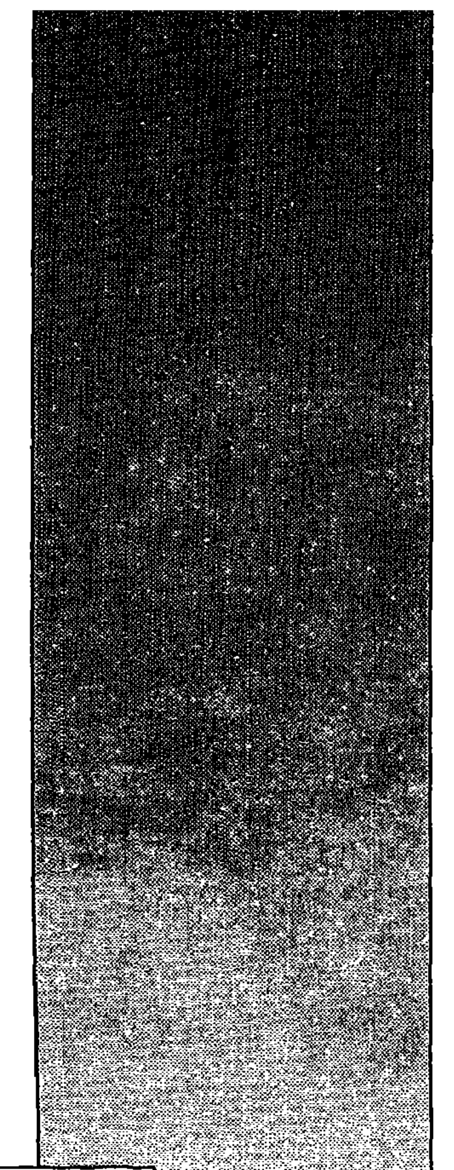


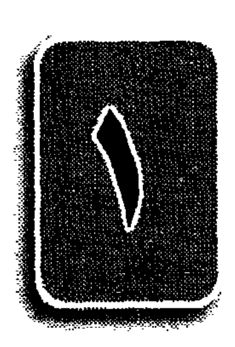
دار أخبـــار اليـوم
قطـــاع الثـقــافــة
جمهـورية مصر العربية
٦ شارع الصحافة القاهرة
تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠

إحسان عبد القدوس





غلاف بريشة : **سيدعبدالفتاح**



كـانت صـداقتـى لعبـد الوهاب البـرعى صـداقـة من نوع عجيب .. فأحـياناً كنت أعتقد أننا مجرد معـارف .. فأنا أعرفه وهو يعـرفنى مـنذ كنا طلبـة فى المدرسـة الابـتـدائيـة ثم فى المدرسة الثانويـة .. ولكنى أحياناً كنت أفاجـأ به وكأنه صديق حميم إلى حد أن يطلعنى على كل أسراره ويستشيرنى فى كل ما يطرأ على حياته حتى لو كنا قد التقينا صدفة ..

وكنا قد التـقينا صدفـة فى أحد شوارع حى الزمـالك حيث يقيم كـلانا ، ودعوته لتناول فنجان قهـوة فى نادى الجزيرة .. وقـال لى بعـد أن انتـهـينا من الكـلام المائع الذى يبـدأ به كل حديث :

– سأتزوج ..

قالهـا وهو ساهم وبلا فـرحة ، وصـحت فـيه كـأنى أحقنه بالفرحة :

– ألف مبروك .. ربنا يتمم بخير ..

وقال وهو لا يزال ساهماً :
- إنها مسلمة ..
وقلت فى دهشة :
- طبعاً .. لابد أن تكون مسلمة .. إن ما أعرفه عنك يجعلنى لا أنتظر لك أن تتزوج من غير مسلمة ..
وقال فى صوته الخافت الساهم :
- إنها أمريكية ..
واشتدت بى الدهشة حتى كادت تقفز بى من فوق مقعدى وصحت :
- هل هى أمريكية أسلمت أم أمريكية من عائلة مسلمة ..
وقال متنهداً كأنه يعيش مأساة :
- لقد أسلمت ..
وقلت وأنا أفتعل الفرحة كأنى أحاول إنقاذه :
- هل أنت الذى أدخلتها الإسلام .. لك الجنة ..
وقال وصوته لا يزال خافتاً :
- لا .. لقد وجدتها مسلمة ..
وقلت وقد بدأ صوتى يخفت مع صوته :
- وكيف أسلمت ؟
قال فى ضيق :
- لابد أنها اقتنعت بالإسلام .. إنها مثقفة .. اسمع أنى سأذهب إليها مساء اليوم لتأكيد الخطوبة وإعلانها .. هل تأتى معى ..
وقلت حائراً :
- يشرفنى .. أين تقيم العروس ؟
وقال بسرعة :

- إنها تقيم مع الدكتورة فوزية الباجورى فى بيتها .. هل تعرف الدكتورة فوزية ..

وقلت وقد عادت الدهشة تستبد بى :

- طبعاً أعرفها .. إنها جارتنا .. ولو أنى لم أرها منذ عادت هى وزوجها من أمريكا .. ولكن هل ستذهب لإعلان الخطوبة وليس معك أحد من العائلة ..

قال وهو يقوم واقفاً :

- أختى ستسبقنى إلى هناك ..

قلت مبتسماً :

- وأبوك ..

ورد فى حدة كأنه ينهرنى :

- إنه موضوع لا يخص أبى .. يكفى أن تكون أنت معى وأنت أعز صديق .. سنلتقى هنا فى الساعة ..

وتركنى دون أن يصافحنى وابتعد مسرعاً كأنه يجرى منى وأنا أتتبعه بنظرات ملؤها التعجب والدهشة والحيرة ..

●●●

وعبد الوهاب منذ كان معنا فى المدرسة الابتدائية وهو مشهور حتى اليوم بأنه ابن الحاج عبد الغفور البرعى .. ولم يكن عبد الوهاب سعيداً أبداً بهذه الشهرة ، وكان يتعمد ألا يتحدث أبداً عن أبيه ويهرب من أى سؤال يوجه إليه عن أبيه .. كأنه كان يستعر منه .. وذلك رغم أنى أعتبر أباه الحاج عبدالغفور معجزة خارقة من معجزات الزمن .. إنه لا أحد يعلم شيئاً عن أصله وفصله ، ولم يعرف عنه أنه من المعجزات المثقفة ، بل قيل عنه إنه لم يدخل مدرسة فى حياته وأنه إلى

الآن لا يجيد القراءة والكتابة .. وهو إلى الآن يرتدى بين الناس الجلباب الواسع وفوق رأسه لبدة ملفوفة داخل لفافة ملونة تفرقها عن لفافة العمة .. وعبد الغفور بدأ كما يحكى عنه عاملا فى مخزن من مخازن وكالة البلح ينقل على كتفيه قطع الحديد الخردة ، ولكنه أخذ يكتشف بسرعة أسرار وكالة البلح .. وبدأ يجازف بعمليات بيع وشراء صغيرة .. ثم أخذ يكبر ويكبر إلى أن أصبح من أكبر تجار الحديد الخردة فى الوكالة .. أصبح مليونيراً .. بل إنه وصل إلى استيراد آلات حديثة لصهر الحديد وقطعه مما در عليه عمليات ضخمة تدر عليه مزيداً من الملايين .. وكان يشاع عن الحاج عبد الغفور ما يشاع عن كل أصحاب الملايين .. إنه يرشو ويهرب ويسرق ، حتى قيل إنه لم يؤد فريضة الحاج ولكنه اغتصب لقب حاج وأسبغه على نفسه ..

ولا يستطيع أحد أن يحدد كم يملك الحاج عبد الغفور .. كل ما يعرفه الناس عنه أنه يملك أربع عمارات حديثة ضخمة .. اثنتان منها فى الزمالك واثنتان فى شارع النيل بالجيزة .. وكان قد انتقل منذ سنوات من الشقة التى كان يسكنها فى بولاق هو وزوجته وولداه عبد الوهاب وعبد الستار وأربع من البنات .. وأقام فى شقة واسعة فى أعلى عمارة يملكها .. فى الزمالك .. ثم اشترى منذ سنوات فيلا أو قصراً من القصور القديمة فى شارع حسن صبرى بالزمالك أيضاً ، واعتقدنا فيما بيننا أنه سينتقل هو والعائلة إلى هذا القصر حتى يمتع نفسه ويمتع أولاده بما وهبه الله ، ولكننا فوجئنا بأن القصر قد استأجرته إحدى السفارات .. وظل الحاج عبد الغفور كما هو

فى الشقة العالية .. إنه لا يحب المظاهر ولا يحب التباهى بثرائه ، بل إنه ليس معروفاً بشخصه فى المجتمعات الراقية .. إنه لا هو ولا أولاده أعضاء فى نادى الجزيرة رغم أنه ناد أصبح يجمع كل من هب ودب ، إنه بجلبابه ولبدته لا يتحرك ولا يقول السلام عليكم إلا إذا وجد كل ما تقوم عليه دنياه .. خذ وهات .. ماذا تساوى الدنيا بلا خذ وهات ..

وكان للحاج عبد الغفور عدد كبير من الموظفين والمعاونين علاوة عن العمال ، وكان معاونوه طبعاً من المتعلمين ، ولكنه لم يكن يؤمن بمنتهى العلم .. لم يكن بين معاونيه مهندس معروف أو مدير معروف ، فقد كان يعتمد كل الاعتماد على ذكائه وحده ولا يريد من المعاونين إلا خدمة هذا الذكاء .. أن يكونوا جنوداً لذكائه .. وقد قيل لنا ضمن الحكايات التى نسمعها عنه أنه كان جالسا مرة فى مقهى قريباً من وكالة البلح تعود أن يمر عليه ليشد نفسين شيشة قبل أن يعود إلى البيت ، وسمع بعض من حوله يتحدثون عن آلات الصهر والقطع الحديثة التى تعمل فى بلاد بره .. ولم يشترك الحاج عبد الغفور فى الحديث ولم يقل كلمة .. وفى صباح اليوم التالى جمع اثنين من المتعلمين الذين يعملون معه وروى لهم ما سمعه .. ثم قال .. شوفوا لنا الحكاية دى .. وبعد بضعة شهور كان قد استورد آلات الصهر والقطع .. إنه معجزة خارقة ..

ولم يكن ابنه عبد الوهاب ولا ابنه عبد الستار من معاونيه ، بل إنهم لم يذهبوا يوماً إلى وكالة البلح ولم يريا مخازن ملايين أبيهم .. كان بينهما وبينه إحساس من الجفاء

الصامت .. كانا ينظران إليه كأنه إنسان جاهل لا يمكن أن يرتقى بنفسه ولا بهم .. ربما لأنه يحتفظ بمستواه الاجتماعى المنعزل المتواضع ، ولا يزال مصراً على الجلباب الواسع واللبدة التى يضعها فوق رأسه .. أما هو فكان يعاملهما على أن كلا منهما مسئول عن نفسه .. إنه عاش مسئولاً عن نفسه وكل ما وصل إليه لم يكن لأبيه فضل فيه .. هذه هى الحياة .. كل ابن يولد وهو مسئول عن نفسه .. ولذلك تركهما دون أن يحاول أن يشدهما إلى دنياه .. إلى العمل معه وفهم أسرار وكالة البلح .. إنه اكتشف بنفسه أسرار الوكالة فليكتشفها ولداه أيضاً لو أراد أحدهما اكتشافها .

ولكن ما كان يقوله الناس عن الحاج عبد الغفور أنه بخيل فى منتهى البخل حتى أنه يخاف على ما يملكه من ولديه فلا يقول لهما كم يملك ولا ماذا يملك ولا أين يحتفظ بما يملك .. حتى لا يثير طمع أحدهما فيه .. بل ربما كان يتعمد إبعادهما عنه كنوع من الحيطة واتقاء خوفه من شرهما .. وكان بجانب مصروفات العائلة العادية يخصص لكل منهما مصروفاً أسبوعياً .. وكانت الأم هى الوحيدة ، التى يتعامل معها مالياً .. يعطيها مصروف البيت ويعطيها مصروفات الأولاد والبنات ويتركها تتصرف وهو واثق أنها لن تزعجه أبداً .. إنها هى الأخرى لم تتغير منذ تزوجها عبد الغفور .. كان أبوها يعمل معه عاملا شيالا فى وكالة البلح وكانت تقيم فى دخانيق بولاق ، ومن يومها لم تحاول أبدا أن ترتفع إلى مستوى آخر .. أو تعيش مجتمعاً آخر .. حتى بعد أن انتقلت لتقيم فى الزمالك .. إنها لا تهتم بأن تتعرف بسيدات الزمالك ولا بسكان

العمارة التى يملكها زوجها .. إنها تكتفى بأنها زوجة صاحب العمارة ، وتتباهى بالأساور الذهبية التى تكسو بها رسغيها .. وعبد الغفور يزيدها من الأساور الذهبية لا لمجرد إشباع نزواتها فى التباهى كأى امرأة ولكن لأنه يعلم أن جمع الذهب هو جمع لأمواله .. تحويش .. وفى أى وقت يستطيع أن يبيع الذهب ويسترد أمواله مع ارتفاع السعر .. إنه مع بخله الشديد يبقى مستغلا ذكاءه .. ذكاء السوق .. إنه مثلا كتب العمارات التى يملكها بأسماء ولديه وبناته لا تنازلاً عنها لهم ولكن تهرباً من الضرائب .. وليس لأحد فيهم أن يتحكم فى أى عمارة باسمه .. بل قد لا يعلم أى واحد منهم كم تدر هذه العمارة من قيمة الايجارات .. إن الإدارة والتصرف له وحده ، بل إنه تنظيماً لأعماله وتخففاً من الضرائب أيضا قسم هذه الأعمال فى ثلاث شركات وجعل شركتين منها باسم أولاده وهم لا يعلمون عنها شيئاً .. إنهم يوقعون على أوراق يحملها لهم مدبولى أفندى سكرتير أبيهم وهم صامتون لا يسألون ولا يفهمون ..

كما أن بخل الحاج عبد الغفور لم يؤثر فى حرصه على تعليم أولاده لا شك أنه يعانى عقدة نفسية ذاتية لأنه لم يتعلم ولم يدخل مدارس فى حياته .. وهى عقدة تغلبت على بخله فكان حريصاً على تعليم أولاده دون أن يسأل نفسه ماذا يريد من تعليمهم ، بل لم يكن يتخيل كما يتخيل الآباء لأبنائهم مستقبلا يتمنون لهم .. دكتور .. مهندس .. محام .. لم تكن هذه التخيلات تخطر على باله ، إنما فقط يحس بالراحة من العقدة التى يعانيها .. إن أولاده وهم قطعة منه ويحملون اسمه

يدخلون المدارس ويجيدون القراءة والكتابة .. لذلك حرص على أن يدخلهم المدارس حتى بناته الأربع .. وقد وصلت نظيرة وهى صغراهن إلى الجامعة .. بل إنها اختارت الجامعة الأمريكية .. إن نظيرة أقدر أولاد عبد الغفور على التحرر من العقدة التى يسببها لهم أبوهم .. وقد دخلت الجامعة الأمريكية ربما لمجرد إثبات شخصيتها كبنت راقية من بنات المجتمع .. وأبوها لا يحاول أن يفهم الفرق بين الجامعة الأمريكية والجامعة المصرية .. يكفى أن اسمها جامعة .. جامعة والسلام .. أما البنات الثلاث فقد تزوجن دون أن يستكملن التعليم الثانوى .. وكان أزواجهن من شباب العائلات الراقية ، ولا شك أن أقوى ما دفعهم إلى الزواج منهن هو ما يعرفونه عن ثراء عبد الغفور .. وعبد الغفور لم يكن يهمه من كل من يتقدم إلى إحدى بناته إلا أن يعرف عنه ماذا يعمل وكم يكسب ومن هو أبوه وماذا يملك .. ولكن . لقد طلقت اثنتان من البنات بعد أن فوجىء زوجاهما بمدى بخل عبد الغفور .. لماذا يعطى بناته بعد أن تزوجن .. إن لكل منهن زوجاً مسئولاً عنها يتولى أمرها .. وكان زوج البنت الثالثة هو الذى استمر بزواجه فقد كان خبيثا صابرا .. استطاع أن يقنع عبد الغفور بأن يعمل معه فى شركاته بصفته محاسباً من خريجى التجارة .. والأهم أنه قادر على انتظار الإرث ..

ومنذ دخل عبد الستار وعبد الوهاب ابنا الحاج عبد الغفور مدارس روضة الأطفال وهما بعيدان عن والدهما .. كل منهما يبحث عن مستقبله بنفسه .. إن أباهما لا يسألهما أبدا عما يجرى لهما أو عما يدرسانه . إنه فقط يسأل أحد معاونيه

سؤالا عابرا عن المدرسة التى يلتحق بها ابنه ، وقد استطاع عبد الستار أن يستمر فى التعليم حتى دخل كلية الهندسة ولكن بعد سنتين فقط وهو طالب فى كلية الهندسة سافر فجأة ليتم تعليمه فى إنجلترا .. ولا أدرى كيف أقنع أباه بأن يدفع له نفقات سفره وإقامته فى الخارج .. لا شك أنه أثار فيه الزهو بأن ابنه يتعلم فى الخارج ليكون عالما فى مستوى الخواجات .. ومن يومها لم يعد عبد الستار إلى مصر .. وقد قيل أنه تزوج هناك زوجة إنجليزية وأنه يعمل ويكسب ولا أحد يدرى ماذا يعمل وكم يكسب .. ربما كان كل ما وصل إليه عبد الستار وسعد به أنه أصبح قادرا على أن يعيش بعيدا عن أبيه ..

كل هذا كلام كنا نسمعه ونتداوله عن الحاج عبد الغفور البرعى وعائلته ، ولكنى لم أعرف الحاج عبد الغفور معرفة شخصية ولا ابنه عبد الستار ولا بنتا من بناته .. لم أعرف إلا عبد الوهاب .. ولم يفكر عبد الوهاب يوما فى دعوتى إلى بيته ليعرفنى بعائلته .. لم يدخل بيت الحاج عبد الغفور أحد من أصدقاء أو من معارف أولاده ..

ومنذ كان عبد الوهاب زميلا لى فى المدرسة الابتدائية وأنا أعتبره شخصية عجيبة .. كنت أحس به أحيانا كما قلت كأنه صديق حميم يلازمنى ويحكى لى .. وأحيانا يبتعد وينعزل ويحيى أحدنا الآخر من بعيد كأن ما بيننا هو مجرد تعارف .. ومنذ كنا فى المدرسة الابتدائية وأنا أحكم عليه بأنه لا يطيق العلم ولا المدرسة وقد انتقلت أنا إلى المدرسة الثانوية وبقى هو راسباً فى الابتدائى إلى أن لحق بى بعد عامين .. وكنت دائما

أتساءل .. لماذا لا يترك المدارس ويتفرغ لمشاركة أبيه فى تجارته .. ربما كانت له مواهب أبيه .. وأبوه كان يعتمد على ذكائه ولم يكن فى حاجة إلى الدراسة أو المدارس .. ولكن .. ربما كانت عقدة عبد الوهاب أنه لا يريد أن يكون كأبيه ولذلك يصمم على أن يدخل المدرسة ويحصل على شهادة ..

وكنا كلما كبرنا وأنا أزداد حيرة فى عبد الوهاب وأفاجأ منه بتصرفات تجعلنى أحيانا أعتبره مجنونا أو شاذا .. وقد التقيت به مرة ونحن فى عمر الصغار وهو يسير فى الشارع مرتديا اللبس الكامل للاعبى كرة القدم .. حذاء لعب الكورة والجوارب والبنطلون والقميص .. وقلت له وأنا أكتم ضحكتى الساخرة :

– إلى أين يا كابتن ؟!

وقال فى جدية :

– عندى تمرين ..

قلت ساخرا :

– هل أصبحت لاعب كرة .. طول عمرك كابتن يا كابتن .. ولكن أين تلعب ؟

وقال فى صوته الجاد وهو ينظر إلىّ كأنه يلومنى ويشير إلى القميص الذى يرتديه :

– ألا ترى .. إنى ألعب فى الترسانة طبعا .. تعالى معى ..

وكان فعلاً يرتدى قميص فريق الترسانة .. وقد سرت معه حتى نادى الترسانة كأنى أسير مع مجنون مستأنس .. لايمكن أن يكون لاعب كرة ويسير فى الشارع هكذا وهو مرتد ملابس الملعب .. لا شك أنه يعانى عقدة ، ربما كانت عقدته أنه يريد أن يشتهر بشىء أو يعرف بشىء .. واختار بخياله أن يعرف وأن

يشتـهر بأنه لاعب كرة حتـى دون أن يلعب الكرة .. لذلك فإنه يتعمد أن يلبس ملابس اللعب ويسـير بها فى الشارع أمام كل الناس .. وقـد دخلت مـعه نادى التـرسـانة ولم أفـاجأ عندمـا لم أجـد أحداً يعـرفه داخل الـنادى .. ولم أجد مـا يدل على أن هناك من يتدرب على اللعب .. ولم يحـاول هو أن يفسر لى أى شيء ولكنه سار بى إلى أن جلسنا مـعا على مقعد من مـقاعد مـدرج النادى وهو يتـحـدث عن الكرة .. إنه يتـتبع فـعـلا كل مباريات كرة القدم ، وربما كان يفهم اللعب ولكنه لم يلعب أبدا إنما اكتفى أن يسير فى الشارع كأنه لاعب كرة ..

وقد كنا أيامهـا فى الخامسة عشرة من العـمر .. وبعد عام واحد وجدت عـبد الوهاب فى حالة أخرى .. لقـد أصبح يتردد كل يوم عند الظهـر إلى بار فى حى الزمالك .. وهو بار مـغلق الأبواب بحـيث لا يسـتطيع من يـمر بـه أن يرى من بداخله .. وهو الذى صحبنى إلى هذا البار وطلب بمجـرد جلوسه زجاجة من البيرة لنفسـه ولم يسألنى ماذا سأطلب أنا .. كل منا يطلب لنفسه ويدفع حساب نفسه .. وقد شرب زجاجة البيرة بسرعة وطلب زجاجة ثانية ثم زجاجـة ثالثة ثم زجاجة رابعة دون أن يستمع إلىّ وأنا أنصحه بأن يكف عن شـرب البيرة .. وقد قام بعد ذلك ولم يكن يترنح فى خطواته ترنحاً فـاضحاً ولكنه كان يهـتـز .. وقـد علـمت أنه يذهب إلى البـار كل يـوم فى الظهـر ولا يشرب إلا البيرة إلى أن يشبع فـيعود إلى البيت وينام إلى أن تتبخر البيرة من رأسه ..

إلى أن مـر عام آخـر ودخل عبـد الوهاب فى حالة جـديدة وهى الحـالة التى لا تزال مـتـمكـنة منه حـتى اليـوم .. حـالة

التدين .. لقد تدين حتى أصبح غارقاً كله فى الدين .. إنه يقضى كل أوقاته بعد المدرسة فى الجامع .. ويقرأ دائماً القرآن والتفسيرات ، وإذا أراد أن يذاكر فإنه يذاكر أيضا داخل الجامع .. وقد وصل به التزمت إلى حد أن أطلق لحيته ثم حلقها ثم عاد وأطلقها .. ويدخل فى مناقشات طويلة .. هل إطلاق اللحية سنة مفروضة أم سنة اختيارية .. هل من حق الرجل أن يكشف عن شعر رأسه أم أن السنة تحرمه .. وكان أحياناً يضع على رأسه طاقية أقرب إلى اللبدة التى على رأس أبيه وأصبح مصراً بعد أن يعود من المدرسة أن يخلع البدلة ويرتدى جلبابا يخرج به إلى الشارع .. إنه يرتدى البدلة مرغماً فى المدرسة ولكن ارتداء البدلة حرام .. ليست من شرائع ولا مظاهر التدين .. البركة كل البركة فى الجلباب .. والمظهر الذى يصون شخصية وكرامة المتدين هو ألا يبدو إلا داخل الجلباب ..

وكنت قد سبقت عبد الوهاب بسنوات وحصلت على الثانوية العامة والتحقت بكلية الهندسة .. أما هو فقد مضى عليه تسع سنوات وهو لا يزال فى الدراسة الثانوية .. ثم فجأة ودون أن يحصل على الثانوية سافر إلى الخارج .. ولا أدرى كيف استطاع أن يقنع أباه بالإنفاق عليه فى الخارج .. ربما كان الأب يدارى عقدته بالتظاهر والتباهى بأن له أولادا فى الخارج .. ربما أراد أن يعطى عبد الوهاب ما أعطاه لابنه عبد الستار الذى يقيم فى الخارج ويتفاخر به ..

وقد سافر عبدالوهاب دون أن يقول لى .. ولكنى سمعت من بقية الأصدقاء الذين يعرفونه .. وكنت أسمع أنه يقيم فى

لندن .. ثم سمعت أنه انتقل إلى باريس ثم إلى سويسرا .. ولم يحدث أن أرسل لى أى خطاب أثناء سفره .. إلى أن التقيت به بعد أربع سنوات فى شوارع الزمالك .. واحتضننى فى شوق وفى لحظة أحسست به يعطينى كل أحاسيس الصداقة كأننا لم نفترق .. واكتشفت بسرعة أنه قد عاد دون أن يتغير .. إنه لا يزال مغرقاً فى التدين ولحيته تتدلى من تحت ذقنه .. ويردد الشعائر خلال كلامه .. ولكنه لا يرتدى الجلباب .. إنه يرتدى بدلة .. لعل ذلك من تأثير إقامته فى أوربا .. ولم يقل لى خلال هذا اللقاء أنه حصل على شهادة ما من أوربا أو تخصص فى علم من العلوم أو مهنة من المهن .. وأنا لم أسأله:

وخلال كل هذا العمر الطويل لم أعرف لعبد الوهاب أى علاقة نسائية .. لا علاقة عاطفية مع فتاة .. ولا علاقة جنسية مع امرأة .. بل إنه لم تكن سيرة البنات تأتى أبدا فى كلامنا .. ولم ألحظ عليه أبدا أنه يتطلع إلى أى امرأة ونحن نسير فى الشارع مهما كانت هذه المرأة مثيرة .. حتى عندما كنت أدعوه ليأتى معى إلى النادى لم تلفت نظره أى « بنت » ، ولم يحاول أن يتقصى عن أى بنت .. بل لم يكن يتحدث عن البنات كحديث نتسلى به ونضحك ، وعندما كان يجلس بيننا ونطلق مثل هذا الحديث يدير وجهه عنا ويسكت .. حتى بعد أن سافر إلى أوربا .. لقد عرفت أنه كان يقيم هناك دائماً فى البنسيونات التى تجمع طلبة مصريين وعرباً .. وكان الطلبة يصحبون النساء إلى البنسيون ويجالسونهن علناً ثم يشد كل طالب المرأة التى يصحبها إلى فراشه .. وكان عبد الوهاب يثور .. ويرفض

أن يشارك أصدقاءه لهوهم ومتعتهم .. ويدخل غرفته ويغلق على نفسه الباب ويقضي الليل يصلي ويستغفر الله .. وأنا أكاد أكون واثقاً متأكداً أن عبد الوهاب رغم أنه الآن في الثلاثين من عمره لا يزال بكراً لم يمس امرأة ..

ولكن يبدو أن أوربا تركت أثراً في عقلية عبد الوهاب وأحاسيسه بالمرأة .. لقد بدأ في أحاديثه معي يمتدح المرأة الأوربية .. إنه يقول إنها إنسانة كاملة الشخصية .. واستطاعت أن تصل إلى القوة التي تصون بها نفسها وتفرض إرادتها على الرجل المتجني ..

وأخذ يتحدث طويلاً عن إعجابه بشخصية المرأة الأوربية دون أن يتحدث عن مستوى جمالها .. وقلت له ضاحكا :

– قل لي يا عبده بصراحة .. ألم تكن لك علاقة بواحدة من هناك ؟!

وقال وهو ينظر إليّ في لوم :

– إذا كانت علاقة بالمعنى الذي أعرف أنك تقصده فلا وأستغفر الله .. ولكني طبعاً عرفت الكثيرات معرفة طاهرة نظيفة .. إنهن لا شك شخصيات كاملة ..

قلت في خبث :

– ألم تغرك واحدة منهن ؟!

قال في لهجة جادة :

– إن الله سبحانه قدرني على مقاومة الإغراء وقدرني على مقاومة نفسي .. والحمد لله ..

قلت وكأني ألح عليه :

– ألم تغرك واحدة منهن بالحلال .. أي الزواج ؟

وقال مبتسماً وكأنه يحادث نفسه :

– إنهن ناقصات .. ولا أريد أن أقول إنهن ناقصات عقلاً ولكنهن قطعاً ناقصات ديناً .. وإخوتي البنات يلححن عليّ منذ عدت بأن أتزوج .. وقد قلت لهن أني أتمنى أن أجد من أتزوجها ولها شخصية المرأة الأوربية .. قوتها .. وعلمها .. واحتمالها للمسئولية .. ولكنى أريد كل ذلك فى امرأة مصرية متدينة .. فالإيمان هو أساس سلامة كل بناء للشخصية ..

ويومها لم أقتنع من كلام عبد الوهاب إلا بأنه أعجب بجمال وقوام نساء أوربا لذلك أعجب بهن ..

●●●

وكنت أعيش كل هذه الذكريات التى أستعيد بها شخصية عبد الوهاب البرعى وأنا فى دهشة لما فوجئت به من إقدامه على الزواج من فتاة أمريكية .. لا شك أنه يتزوجها لأنه وجدها مسلمة .. لقد استكملت فى تقديره العقل والدين .. عقل بنات أوربا وديننا ..

وتعمدت أن أرتدى البدلة كاملة وأن أعلق الكرافت .. فإنى ذاهب فى لقاء رسمى لإعلان خطوبة صديقى .. وقد جاء فى موعده تماماً .. واتجهنا مباشرة وركبنا سيارتى .. إن عبد الوهاب ابن المليونير المعجزة عبد الغفور البرعى لا يملك سيارة ولم يملك فى حياته سيارة ، بل إنه لا يعرف كيف يقود سيارة .. إن أباه مقتنع بأن من يريد من أولاده سيارة فليشترها من ماله بعد أن يكون له مال ..

وقلت وأنا أقود سيارتى وبجانبى عبد الوهاب صامتاً ساهماً :

– ما اسم خطيبتك ..

ونظر إلىّ كأنه يلومنى لهذا السؤال وكأن ليس من حقى أن أعرف اسم خطيبته .. لا يصح .. عيب .. ولكنه عاد وقال :

– اسمها أمينة .. أصبح اسمها أمينة ..

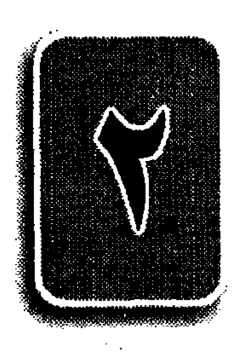
قلت وأنا لا أهتم بلومه :

– هل تعمل .. أم أنها هنا للفسحة والسياحة ؟!

وقال باختصار وبصوت عصبى :

– إنها دكتورة .. طبيبة ..

وسكت .. ووجدت نفسى أقود السيارة بسرعة تفوق ما تعودته ، وأبذل مجهوداً حتى لا ترتعش يداى فوق عجلة القيادة .. أحس كأنى مقدم على عملية خطيرة مثيرة .. وأحس باندفاع صارخ لرؤية هذه الدكتورة الأمريكية .. أريد أن أراها وأعرفها وأحس كأنى فى طريقى إلى الكشف عن أسرار .. ونقطة ضعفى التى أتعبتنى فى كل حياتى هى إدمانى لهواية الوصول إلى الأسرار ..



كان أول ما فوجئت به أنى لم أجد فى البيت أى مظهر من مظاهر الاستقبال التى تتطلبها مناسبة إعلان خطوبة .. كنت أنا وعبد الوهاب وحدنا يرتدى كل منا بدلة ورباط عنق .. فبدونا كأننا غرباء .. واستقبلتنا فوزية صاحبة البيت استقبالا عاديا كأن ليس هناك أى مناسبة تشيع فرحة الترحيب .. بل إنها لم تفاجأ بى رغم أنه قد مضى أكثر من أربع سنوات منذ سافرت إلى أمريكا وعادت دون أن ألقاها وهى جارتى وصديقتى منذ أيام الطفولة .. ربما غيرتها حياتها فى أمريكا فلم تعد تحس بالشوق أو تندفع مرحبة .. وكانت ترتدى قميصاً عادياً وبنطلوناً كأن ليس هناك ما يستحق أن تتعب نفسها وتتزين من أجله .. ثم صافحت زوجها مؤنس خلف الله .. الدكتور مؤنس .. وكان هو الآخر لا يبدو أنه يحتفل بمناسبة ولا حتى باستقبال ضيف .. إنه يرتدى بنطلون شورت كأن لا أحد غريب فى بيته .. ولكنه كان أكثر حرارة فى الترحيب بى .. ثم دهشت عندما وجدت ابنة عمى خيرية ..

من اللون الأزرق أيضاً تغطى كل شعـرها .. لا شك أنها متأثرة بما فهمته من تعاليم الإسلام ..

وقالت لها فوزية بلغة إنجليزية ولهجة أمريكية :

– أمينة .. تعالى يجب أن نعد شيئا نقدمه ..

كأنهما لم يحسبا حساب زيارتنا قبل أن نصل ..

وقامت أمينة فوراً خلف فوزية وهى صـامتة .. كأنها تلقت أمراً لا تسـتطيع أن تجادله .. وتـتبعـتهـا وهى تجرجر ثـوبها الطويل بين قدميها .. ثم قلت لعبد الوهاب :

– ألا تتكلم أمينة العربى ..

وقال عبد الوهاب وفى عينيه لمحة فرحة :

– إنهـا تتكلم العربى وترتـل آيات القرآن بالعـربى .. ولكن طبعاً لغتها الأصلية هى الإنجليزية ..

قلت وأنا أبحث عن كلام :

– لقد كانت فوزية تكلمها بالإنجليزية .. لهذا سألتك ..

وقال عبد الوهاب مبتسماً :

– إنهما يتكلمان بحكم التعود فقد عاشا معاً فى أمريكا أربع سنوات ، وأمينة لم يمض عليها فى مصر سوى ثلاثة أشهر ..

وقلت فى صوت خفيض كأنى أهمس :

– هل أعلنت إسلامها فى أمريكا ..

وقال عبد الوهاب وهو يهمس أيضاً كأنى عدوته بالهمس :

– لا .. أسلمت بعد أن جاءت إلى مصر ..

وكنا جالسين وحدنا فى الشرفـة فجاء إلينا الدكتور مؤنس يدعونا إلى الداخل قائلاً ضاحكاً :

– إعـداد مـا يقـدم لنا على وشك أن يتم .. تعـالوا قـبل أن يفوتنا القطار ..

وقمنا إلى الداخل وكل عقلي ممتلىء بأمينة .. هذه المرأة الأمريكية المسلمة .. إنى بعد أن رأيتها ازدادت حيرتى فيها واشتد إحساسى بأنى مقبل على عالم أسرار .. ولكنى بمجرد أن تركت الشرفة وجدت نفسى وقد انشغلت بنظيرة أخت عبد الوهاب والابنة الوحيدة للحاج عبد الغفور البرعى التى استطاعت أن تستمر فى التعليم إلى أن وصلت إلى الجامعة الأمريكية .. إنها شخصية غير ما كان يمكن أن أتصوره لابنة الحاج عبد الغفور .. إنها هى التى تتكلم كل الكلام ونحن جلوس معها .. إنها تحكى عن دراستها ونوادر الجامعة .. وأنا أزداد إعجاباً بها .. إلى أن دخلت علينا فوزية وبجانبها أمينة يجران مائدة صغيرة تحمل معدات الشاى وإبريقاً من عصير الليمون وطبقاً من البسكوت وتحمل أيضا بعض الزجاجات .. زجاجة كمبارى وزجاجة جين .. كأن البيت يعترف بالحرية .. لك حق ألا تشرب الخمر ولك حق أن تشرب ..

وفوزية شربت كمبارى وشربت معها .. وزوجها مؤنس شرب من زجاجة الجين .. وكل الباقين اكتفوا بالشاى .. وأمينة اكتفت بشرب الليمون .. وقد حدث أن مد الدكتور مؤنس يده إلى زجاجة الصودا ليضيف منها إلى كأسه فقامت أمينة تساعده وما كادت تلتقط زجاجة الصودا وتهم أن تصل بها إلى مؤنس حتى قال عبد الوهاب فى صوت كأنه زئير الأسد :

– حرام ..

وبسرعة ألقت أمينة الزجاجة من يدها بينما لوت فوزية شفتيها كأنها ساخطة ثم قالت ساخرة باللغة الإنجليزية كأنها مغتاظة :

- ستكونين زوجة مطيعة ..

وكنا نتبادل الأحاديث العائمة ونظيرة مشتركة معنا دائماً .. إلى أن قالت :

- إن ثوبك أطول من المعقول يا أمينة ..

ونظرت أمينة إلى أطراف ثوبها ولم تتكلم وقال عبد الوهاب فوراً :

- هذا ثوب المرأة كما يجب أن يكون .. إنها أكثر إيماناً منك ..

ولم ترد أخته نظيرة ولكنها ضحكت ، ولكن فوزية قالت في غل :

- ليس أحدهما أكثر ولا أقل إيماناً من الأخرى .. إن الإسلام يعترف بحرية الفرد في حدود تعاليمه .. ونظيرة حرة في تقصير ثوبها متراً وأمينة حرة في إطالة ثوبها مترين .. ما دام الثوب لا يكشف عن عورة ..

وكانت تتكلم بلهجة الأستاذة المتأكدة من ثقافتها ..

وقالت نظيرة كأنها تريد أن تنقذ الموقف :

- لنتكلم في الأهم .. والأهم أن نتفق على يوم إعلان خطوبة أخي عبد الوهاب وأمينة ..

وقالت فوزية في ازدراء :

- اتفقوا ..

وقال مؤنس في مرح :

- لماذا لا تتم الخطوبة اليوم .. الآن .. منذ أسابيع وهما يدوشاننا بقصتهما ..

وقالت نظيرة ضاحكة :

- لابد أن يكون لإعلان الخطوبة فرحة وحفلة ..

وقال مؤنس :
- إن الفرحة فرحتهما .. ما لنا وما لهم .. ونوفر التقاليد القديمة التى بليت ونسيناها ..
وقالت فوزية ساخرة ملتفتة إلى عبد الوهاب :
- هل معك الدبل ؟!
وتنحنح عبد الوهاب كأنه يهم أن يلقى خطاباً طويلاً :
- إنى لا أريد إعلان خطوبة .. ليست الخطوبة شريعة مفروضة .. لنعلن الزواج مباشرة .. لنتزوج ..
وقالت أمينة ضاحكة :
- لك حق ..
وقالت نظيرة وهى تضحك كأنها لا تصدق ما تسمعه :
- ومتى يكون الزواج ..
وقال عبد الوهاب فوراً :
- الآن .. نرسل فى استدعاء المأذون وعلى بركة الله .. أو على الأكثر غداً ..
وصاحت أمينة :
- لا .. مستحيل .. إنى لست مستعدة للزواج الآن ولا غداً ..
وقالت لها نظيرة ضاحكة :
- متى يا عروسة ..
وقالت أمينة وهى تحنى رأسها كأنها خجولة :
- ليس قبل أسبوعين ..
ودارت الأحاديث والمناقشات بيننا وكلها تنبض بالسعادة والمرح ، وإن كانت فوزية هى دائما أكثرنا جدية فى حديثها حتى أنها كان يبدو عليها أنها لا ترحب بهذا الزواج .. ثم تم الاتفاق نهائياً على أن يتم الزواج بعد أسبوعين .. وفى ليلة الجمعة احتراماً للتقاليد ..

وقمت منصرفاً بعد أن عرضت على ابنة عمى خيرية أن أوصلها بسيارتى .. كنت أريد أن أعرف منها شيئاً عن روزالين .. أقصد عن أمينة .. لابد أنها تعرف عنها شيئا .. وكنت أقدر أن عبد الوهاب يريد أن يبقى مدة أطول مع عروسه ، ولكنه استوقفنى وجاء معى بعد أن صافح الجميع مصافحة رسمية .. حتى عروسه لم يقل لها كلمة أكثر مما قاله .. وطبعاً لم يحاول أن يقبلها كما جرت العادة بين عريس وعروسه بعد أن اتفقا على ليلة الزفاف .. أما أخته نظيرة فقد فضلت أن تبقى .. وستعود إلى البيت وحدها .. إنها تريد أن تتحدث أكثر مع العروس .. ونظرت إليها كأنى ألومها وابتسمت لها مودعاً من بعيد .. إنى أحس باهتمام كبير ناحية نظيرة ..

●●●

وقلت لعبد الوهاب وهو ينزل من سيارتى أمام باب عمارتهم :

– دعنى أراك .. غداً فى النادى ..

وقال مبتسماً :

– سأمر عليك فى السابعة مساء ..

إنه ليس عضواً فى النادى ولا يحب التردد عليه .. وكانت هذه أول مرة نحاول فيها أن نتواعد على لقاء بعد أن تعودنا على لقاءات المدرسة أو لقاءات الصدفة .. ولم أكن قد قررت أن أعتمد على عبد الوهاب لأصل منه إلى السر .. إنه يبدو كأنه لا يعرف شيئا إلا أن أمينة خطيبته مسلمة .. ولكنى كنت أريد أن أوطد صداقتى معه .. أصبحت أحس كأنى فى حاجة إليه ..

وما كدت أبتعد بسيارتى حتى سألت ابنة عمى خيرية فى لهفة :

- هل تعرفين هذه الفتاة الأمريكية ؟
وقالت ضاحكة :
- أعرفها منذ جاءت إلى مصر وأقامت عند فوزية ..
وقلت فى صوت ملهوف :
- ولماذا جاءت إلى مصر ؟
قالت من خلال ابتسامة تخفف من ضحكتها :
- لا أدرى .. إن كل ما تقوله أنها أحست بأنها تريد أن تجىء إلى مصر وصممت على أن تجىء إلى مصر ..
قلت ملحاً :
- ولماذا تقيم عند فوزية ..
قالت وهى تهز كتفيها كأنها لا تصدق ما ستقوله :
- لقد كانتا صديقتين جداً فى أمريكا .. كانتا تقيمان فى عمارة واحدة .. وكان من المفروض أن تقيم معها عندما تأتى إلى مصر .. هذا كل ما يقال لنا ..
قلت وكأنى أنهر خيرية لأنها لا تستطرد فى حديثها :
- وماذا عرفت عنها ؟
وقالت خيرية ولهجتها ساخرة :
- إنها طبيبة متخصصة فى علاج اللثة .. ولكنها لا تستطيع أن تمارس الطب حتى الآن فى مصر لأنها لم تحصل على إذن .. لذلك فقد التحقت بالعمل كسكرتيرة فى مكتب إحدى شركات البترول الأمريكية حتى تحصل على ما يكفل لها مصاريف إقامتها .. وفى الوقت نفسه تحاول أن تتعرف وتصادق أطباء الأسنان .. لأن طبيب الأسنان يستطيع أن يصل بها إلى ممارسة علاج اللثة .. وفوزية متحمسة لها جداً .. ولكنها إنسانة عجيبة حتى أنى لا أصدق أنها طبيبة رغم أن

حديثها يدور معظمه عن أيام دراستها .. وفى يوم اتصلت بفوزية وقلت لها إنى أريد أن تزورنى روزالين لأنى أحس بالتهاب فى لثتى .. وكانت فوزية تقوم لها بالدعاية فعلا كطبيبة .. ولكنى فى الواقع لم أكن فى حاجة إلى علاج لثتى ولكنى كنت أريد أن أعرف روزالين أكثر .. أن أتفرج عليها من شدة ما كنت أتعجب منها .. وكان ذلك فى الأيام الأولى لوصولها ولم تكن قد أعلنت إسلامها بعد ولم يكن اسمها قد أصبح أمينة بدلا من روزالين .. وقد جاءت إلىّ فى الحال وهى تحمل حقيبتين .. حقيبة صغيرة وحقيبة كبيرة .. وفتحت الحقيبة الصغيرة وقبل أن تمد يدها إليها طلبت منى أن أفتح فمى وأخذت تكشف على لثتى وتتحسسها بأصابعها ثم أخرجت من الحقيبة الصغيرة أدوات تعينها على الكشف .. وكل من فى البيت قد التف حولنا يتفرج على هذه الأعجوبة الأمريكية .. إلى أن انتهت من الكشف وأوصت بالدواء .. ثم أغلقت حقيبتها الصغيرة وجلست بيننا كصديقة وقالت مبتسمة :

– أليس بينكم من هو فى حاجة إلى حذاء ..

وفوجئنا ودهشنا بما تقوله ، وقبل أن نرد عليها مدت يدها وجذبت الحقيبة الكبيرة وفتحتها وإذا بها مزدحمة بعدد من الأحذية .. أحذية رجالى .. وأحذية نسائى .. وأحذية أطفال .. ورفعت عينيها إلينا تستعرض دهشتنا ، ثم قالت فى بساطة وهى تبتسم :

– إنى أبيعها ..

وضحكت ابنة عمى خيرية وهى تهز رأسها تتعجب لذكرى هذا اليوم بينما أنا أقود السيارة وقد فغرت شفتى من

الدهشـة .. كأنى أسمع قصة غريبة مثيرة .. إلى أن عادت خيرية تحكى :

– لقد أخذنا نقلب فى الأحذية بأيد ترتعش من الدهشة .. بينما هى تتحدث بانطلاق عن البضاعة التى تعرضها كأنها تاجرة محترفة : هذه أحذية أمريكية من بلد أمريكى .. وهذا الجلد كذا .. وهذا النعل كذا .. وقد سألناها يومها ..

– لماذا أتيت بالأحذية من أمريكا لتبيعيها فى مصر ..

وسكتت برهة كأنها فوجئت بالسؤال ثم شدت ظهرها وقالت فى لهجة متعالية :

– إنى من عائلة تتاجر فى الأحذية ..

ولم نسألها أكثر من ذلك .. وقد اشتريت منها حذاء .. والحقيقة أنه لم يعجبنى شىء من هذه الأحذية ولكنى اشتريت مجاملة لها ولعلها مجاملة تحمل إحساسى بالتعجب والإشفاق .. وقد دفعت لها الثمن الذى حددته .. ثمانية جنيهات للحذاء الذى اشتريته وخمسة جنيهات أتعاب الكشف على لثتى ..

وقاطعت خيرية ملهوفاً :

– ألا تزال تتاجر فى الأحذية ؟

وقالت خيرية ضاحكة :

– لا .. لقد باعت ما كان معها ولم تسافر إلى أمريكا لتعود بشحنة أخرى من الأحذية ..

وكنا قد وصلنا إلى بيت ابنة عمى وقلت لها ملحاً :

– سأركن السيارة وأصعد معك لتحكى لى المزيد ..

وقالت ضاحكة :

– ليس لدى المزيد .. إن روزالين شخصية لا تستطيع أن

تكتشفـها بسهولة .. وهى تصمت طويلاً .. قـد تقضى الجلسة كلها وهى صامتة .. وقـد تتكلم فإذا تكلمت فإنها لا تسكت عن الكلام .. وكل كلامها ينصب عـلى آراء ودراسات لا تفهم منها شيئـاً .. أما فوزية فهى لا تحب أن تتكلم كـثيراً عن صديقـتها روزالين ، وإذا تكلمت لا تجد فى كـلامها شـيئا غريبـاً .. كأن روزالين مجرد ضيفـة عادية من أمريكا .. لذلك فلن تجد عندى ما يشـبع لهفـتك .. وتصبح على خـير .. لا تعذبنـى بإلحاحك يا ابن عمى ..

وفـتحت باب السـيـارة وجرت إلى البـيت ضـاحكة كأنهـا تغيظنى ..

●●●

كنت أعلم أنى لن أستطيع أن أكتشف أسرار روزالين إلا إذا كشـفتـها لى فـوزية الباجـورى .. وأنا أعرف فـوزية منذ كنا صبية .. كانت جارتنا .. وأهلى متـعارفون بأهلها .. وكانت لها شخصية تميزها عن كل بنات الحى .. كانت شخصية أقرب إلى شخصية ولد لا بنت .. كانت تبدو دائماً عنيفة ونظراتها تنطلق فى جرأة .. وكانت إذا وجـدتنا نلعب الكرة فى الشارع أصرت على أن تلعب مـعنا . وإذا وجـدتنا فى مـشـاجـرة مع أطفـال ونضرب بعـضنا بعضاً حشرت نـفسها معنا فـى المشاجرة .. حـتى بعد أن أصـبحت شـابة رأيتـها يومـا فى النادى الأهلى تتـدرب على رفع الأثقـال .. ثم علمت أنهـا تلعب الشـيش بالسـيف .. ويغلب عليـهـا دائمـا ومنذ صـغـرها طابع وذوق الأولاد .. إنها تقص شعرها دائما بحيث يصـبح قصيرا كشعر الأولاد .. ودائمـا بالبنطلـون والقـمـيص ونادراً مـا كنا نراها بالفستان .. والمهم أنها كانت دائماً تصر على فرض شخصيتها

على البنات وعلى من تعرفهم من الأولاد .. كـأنها كانت تحاول دائمـاً أن تكون الزعيـمة .. وتخـتـار بنتاً من البنات وتفـرض شخصـيتها عـليها حتى تبـدو هذه البنت كأنها قد اسـتسلمت لفوزية استـسلاماً كاملاً .. وقد يمر عـام أو عامان وهذه البنت مستسلمـة إلى أن تبتعد مرة واحدة وتكون فـوزية قد اختارت بنتاً أخرى تستـسلم لها .. من يدرى .. ربما كانت روزالين هى البنت المستسلمة الآن .. وحتـى بين الأولاد كانت فوزية تختار ولداً تستطيع أن تـفرض عليه شـخصيـتها .. وفـوزية ليست جميلة حتى تفرض شخصيتها باستغلال جمالها .. إنها سمراء قاتمة وتقاطيع وجهها ليست مثيرة وإن كان قوامها دائماً رائعاً ولكن أهم ما فيهـا أنها جذابة .. وذكية .. وبجاذبيتـها وذكائها كانـت تختـار دائماً ومنذ صـغرها ولداً ثم شـاباً تفرض علـيه شخصيتها ويلازمهـا .. وتترك الإشاعات ترسم قصة حب لها مع هذا الشـاب .. رسـمت الإشـاعـات لهـا فى يوم من الأيام صورة حب لها مع صديقنا محيى .. ثم ذهب محيى وأصبحت القصـة مع صديقنا عادل .. إنها دائمـاً مرتبطة بقصـة .. قصة مع ولد وفى نفس الوقت قصة مع بنت ..

وكـان ذكاء فـوزية يوفر لهـا النجاح فى دراسـتهـا إلى أن التحـقت بكلية الاقتـصاد والعلوم السيـاسية .. ولكنهـا بعد أن تخرجت لم تعـمل فلم يكن من أهدافها ولا مـن احتياجـاتها أن تعـمل .. وهى لا تقـدم علـى أى خطوة إلا إذا كـان لهـا هدف تحتـاج إليه .. وكانت فى حـاجة إلى الزواج ، وكانت أصـبحت فى قصة حب مع مؤنس فتزوجـته .. وتفرغت للزواج محتفظة بكل شخصيـتها وكل حريتها .. إلى أن تقـرر أن يسافر مؤنس إلى أمريكا فى بعثـة دراسية وسافرت معـه .. وعادا بعد أربع

سنوات وبعد أن حصل زوجها على الدكتوراه وهى أيضاً حصلت على ماجستير فى إدارة الأعمال .. وربما التحقت بالجامعة هناك لا لأنه كان من هدفها أن تعمل ولكن فقط لكى تشغل وقتها فإن الحياة فى أمريكا لا تطاق إذا لم يكن لك عمل يزدحم به الوقت .. لذلك فهى لم تحاول أن تلتحق بأى عمل بعد أن عادت ، بل إنها لا تفرح ولا ترحب بأن تنادى بلقب الدكتورة فوزية ، وقد كانوا ينادونها بهذا اللقب رغم أنها لا تحمل سوى شهادة ماجستير .. إنها كلها متفرغة لبيتها ..

هذه هى فوزية كما أعرفها وأغلب ما أعرفه سمعته عنها فإننا بعد أن تخطينا صبانا لم تعد تجمعنا صداقة مستمرة .. ربما لأنى كنت دائما أعتبرها إنسانة غريبة وإنسانة صعبة .. وربما كانت هى لا تحاول الارتباط بى بصداقة لأنى لم أكن أحقق لها هدفاً تحتاج إليه .. ولكن كان لنا من أهل الحى أصدقاء كثيرون مشتركون وكنا ندعى إلى دعوات كثيرة تجمعنا .. وكنا دائماً عندما نجتمع يفرح كل منا بالآخر فرحة ذكريات الصبا ..

وأنا الآن فى حاجة إليها .. وربما كانت تبدو حاجة تافهة فماذا يهم من معرفة أى شىء وكل شىء عن روزالين .. ولكنها بالنسبة لى حاجة ملحة لا لأطمئن على مستقبل صديقى عبد الوهاب الذى سيتزوج روزالين فحسب ، ولكن لأننى كما قلت مصاب بإدمان الكشف عن الأسرار ..

وفى اليوم التالى لزيارتنا لفوزية حادثتها فى التليفون وتعمدت أن يكون حديثاً عن ذكرياتنا وعن الأحداث التى قد تهمها وعن أهلى وأهلها دون أن أثير موضوع روزالين وزواجها من عبده .. كنت أحاول متعمداً أن أستعيد صداقتنا

قبل أن أستغلها فى الكشف عن الأسرار .. وقد أحسست بأنها سعيدة بأحاديثنا .. وتضحك كلما ذكرتها بواحد من أصدقائها القدامى .. أو كلما عايرتها بأنها لم تستطع أن تكون لاعبة كرة .. والأحاديث التليفونية تعددت إلى أن قلت لها :

– متى أستطيع أن أراك ؟

قالت فى بساطة :

– تستطيع أن تأتى لزيارتى فى أى وقت ..

قلت ضاحكاً :

– سأزورك بصفتى صديقك لا صديق عبد الوهاب كما استقبلتنى عندما زرتك فى المرة السابقة ..

قالت وهى تضحك :

– وسأستقبلك لأنك جئت لى لا للفرجة على روزالين .. أمينة .. إنى لم أتعود بعد على أن أسميها أمينة ..

قلت مداعباً :

– إذا كان من الصعب عليك التعود فابذلى مجهوداً أكبر حتى تتعودى علىّ ..

وكنت أحس وأنا أقول هذا الكلام أنى أنافقها .. أحاول أن أجذبها إلى صداقتى حتى تطمئن إلىّ أكثر .. وقد حددت موعدا لزيارتى فى العاشرة صباحا .. أريد أن أراها وهى وحدها بعيدا عن زوجها حتى أستطيع أن أجذبها أكثر إلى الحديث . وليس بيننا ما يمكن أن يثير الشك إذا قابلتها وحدها .. وقالت مرحبة فرحة :

– لتكن الساعة الحادية عشرة حتى أكون قد انتهيت من مطالب البيت ..

إنها ست بيت متفرغة كأنها لا تحمل شهادة الدكتوراه أو الماجستير من أمريكا ..

●●●

وذهبت فى الموعد ..

وما كدت أهم بدخول باب العمارة الكبيرة حتى وقفت مشدوهاً وعيناى تبحلقان فى دهشة ، واضطررت أن أستند على الجدار حتى لا تقذف بى الدهشة على الأرض ..

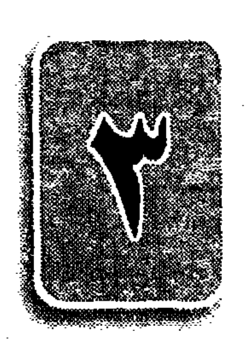
إن روزالين أمامى عند الرصيف .. وهى مرتدية ثوبها الذى يغطيها من أول عنقها حتى قدميها ، وشعرها مغطى بالطرحة الملفوفة .. وهى تهم أن تركب موتسكل تمسك بحافته بين يديها ..

ورأتنى من بعيد وصاحت :

– هاللو ..

ثم رفعت ساقها وهى تمسك بثوبها وركبت الموتسكل .. وارتفع صوت الموتور كأنه زغرودة صارخة .. وانطلقت تجرى به فى الشارع إلى أن اختفت ..

واستطعت أن أفيق من دهشتى وهززت رأسى حتى أطرد ذهولى وأتخلص من المفاجأة .. لماذا أصدم وأنا أراها تركب الموتسكل .. إن بنات أمريكا يركبن الموتسكلات حتى لو كن فى القاهرة ..



٣

لم يكن من السهل جذب فوزية للتحدث عن روزالين .. إنها تبدو أحيانا كأنها لا تحب التحدث عنها أو كأنها تريد أن تقول لكل الناس .. مالكم ومالها .. ولكن فى أحيان أخرى كانت تستسلم للتحدث وأعرف منها أصل وفصل روزالين .. وكانت فوزية تكرر دائما كلما جاء ذكرها : مسكينة .. مسكينة ..

إن روزالين من قرية مجاورة لمدينة شيكاغو .. والقرى فى أمريكا هى مدن صغيرة .. ليست كقرانا فى مصر .. والعائلة تملك محلا متواضعا لبيع الأحذية تعتمد عليه اعتمادا كاملا .. وهى عائلة كاثوليكية متزمتة إلى حد العزلة .. فلم تكن روزالين بنتا كبقية بنات أمريكا تنطلق بكامل حريتها فى كل نواحى الحياة ولكنها كانت بنتاً مقفولة كأنها محبوسة فى سجن .. وأمها هى السجانة .. إنه ليس من حقها أن تدخل أو تخرج إلا بأوامر أمها .. ليس من حقها أن يكون لها صديق كبقية البنات .. ممنوع لمس الرجل إلا فى الحلال .. وليس من حقها أن تصادق إلا البنات .. وتعودت على البنات حتى لم تعد

تحب أو يخطر على بالها أن يكون لهـا صديق شاب .. يكفيها البنات .. وكـان كل يوم من أيامهـا مرسومـاً خطوة بخطوة .. إنهـا تذهب إلى المدرسـة فى الصـباح .. وتخـرج من المدرسـة. وتذهب إلى دكان الأحـذية لتساعد أباها وأمهـا .. ثم تعود إلى البيت فى السابعة مساء ، وتبقى فيه حتى اليوم التالى وتشغل وقتها بأعمال البيت والمذاكرة ..

هكذا كـانت حـياة روزالين .. حـيـاة مـقفـولة وفى منتـهى التـزمت .. وربما كـان الدافع إلى هذا التـزمت هـو البـحث عن الأمن .. عن حـمـاية النفس .. إن كل أهل أمـريكا يعـيشـون فى خـوف .. لا أمان فى أمـريكا .. إن البنت قـد تسـير فى الشـارع فـيعـتـدى عليـها صـبـاحا أو مـسـاء لسرقـتـها أو لخـطفهـا واغـتـصـابهـا .. والذين يعـتـدون ليـسـوا الزنوج وحـدهم أو المكسيكيون أو أى ممن يقال عنهم إنهم مـعتدون .. إنك تسير فى الشـارع ولا تدرى من سـيـعـتـدى عليك .. حـتى وأنت فى البـيت .. لا تدرى ما يمـكن أن يحدث لك ولبـيـتك .. إنهم هناك حـريصـون على غلق الأبواب والنـوافـذ دائمـا ولا يكـفى غلق الأبواب والنوافـذ ، فهم يتـركون النور مـضاء طول الليل حـتى يقولوا للمعتدى قبل أن يعـتدى أن البيت ليس خالياً من سكانه ، وحتى إذا دخل عليـهم المعـتـدى سـاعـدهم النور المضـاء على التصدى له ..

إن الخوف فى أمـريكا أصبـح كأنه طابع الحـياة البـشرية وخـصوصـاً خوف البنات .. الجنس الضـعيف .. وربما كـانت غـريزة الخوف هى التـى كانت تدفع روزاليـن إلى أن تتحـمل تزمت أمها .. إلى أن حدثت لهم حـادثة .. كانت تركب مع أمها وأخيـها فى سـيارة العائلة .. وكـانت أمها هـى التى تسوق ..

ووقع تصادم عنيف مع سيارة لورى .. ووقع الثلاثة مصابين .. وقد أصيبت أمها وأخوها بارتجاج فى المخ أدى إلى أن اهتزت قواهما العقلية .. أصبحت أمها مجنونة وأخوها مجنوناً .. أما هى .. روزالين .. فلم تصب إلا بكدمات خفيفة عوفيت منها ولكن الناس اعتقدوا أنها هى أيضا قد جنت .. كان أى تصرف من تصرفاتها يفسره الناس على أنها مجنونة .. يا ناس أنا لست مجنونة .. إنها أمى .. ولكن الناس كانوا ينظرون إليها كما ينظرون إلى أمها المجنونة التى دفعها الجنون إلى التطرف فى التدين والتزمت .. ووصل بها الجنون إلى أن قامت من نومها ذات صباح باكر وخرجت من البيت كما هى وحتى دون أن تضع حذاءها فى قدميها وسارت فى الشارع إلى الكنيسة .. ثم دخلت وأخذت تحطم كل شىء .. الصلبان .. والشمعدانات .. حتى حطمت تمثال السيد المسيح .. ثم سقطت على الأرض تصرخ وتبكى .. وكأنها فعلت كل ذلك وهى نائمة ..

ولم تعد روزالين تحتمل هذه الحياة .. وكان أبوها شفوقاً عليها وكان متأكداً أنها لم يصبها شىء من الجنون الذى أصاب أمها وأخاها .. واستجاب لإلحاحها بأن تلتحق بالجامعة واستطاع أن يدبر لها نفقات دراستها فى المدينة الكبيرة .. وقد أقامت هناك فى حجرة من شقة من شقق عمارة ليست عالية .. ولكنها عمارة قديمة مريحة لها أربعة أجنحة حول حديقة صغيرة يتوسطها حمام سباحة .. وكانت فوزية وزوجها مؤنس يقيمان فى شقة فى نفس العمارة .. والتقت فوزية بروزالين وبسرعة تصادقا .. ربما لأن فوزية تعودت على أن يكون لها دائماً صديقة من البنات وروزالين ليس لها أصدقاء

إلا من البنات .. وربما لأن روزالين وجدت فى فوزية طبيعة تختلف عن طبيعة الصداقة فى أمريكا .. الطبيعة السمحة الكريمة الضاحكة .. وربما جذبهما إحداهما إلى الأخرى اختلاف اللون .. فوزية سمراء غامقة .. ليست سوداء ولكنها شديدة السمار .. وروزالين بيضاء فاقعة البياض .. واختلاف اللون له تأثير فى قوة الجذب .. فمؤنس زوج فوزية هو أيضاً فاقع البياض ..

وتوطدت الصداقة بين فوزية وروزالين حتى أصبحت روزالين تقضى كل أوقات فراغها فى شقة فوزية أو معها فى حمام السباحة .. ثم أصبحت روزالين تحمل كتبها وتذاكر فى شقة فوزية .. إن الاثنتين فى الجامعة وإن كان كل منهما متخصصاً فى دراسة .. ثم تركت روزالين حجرتها وانتقلت كلها إلى شقة فوزية لتعيش فى غرفة خصصت لها وتدفع إيجارها .. لم ترفض فوزية أخذ قيمة الإيجار من روزالين رغم كل صداقتها ورغم أنها ليست فى حاجة إليه .. فهكذا فى أمريكا .. الصراحة فى التعامل ..

وعاشت روزالين مع فوزية وزوجها عامين .. حتى أيام الأجازات الجامعية كانوا دائما معاً .. لم تكن تفترق عنهما إلا أياماً قليلة خلال العام لتذهب لزيارة أهلها فى قريتها .. وخلال العامين لم تفكر أبدا فى اعتناق الإسلام .. وكانت تتحدث أحيانا مع مؤنس أو مع فوزية عن الإسلام .. وكان مؤنس أحياناً يترجم لها بعض آيات القرآن وأحياناً وفى مناسبات متباعدة كان مؤنس يصلى ركعتين لله وروزالين وراءه تراقبه .. ثم كانت فوزية تصوم فى رمضان ولو أنها لم تكن تصوم الشهر كله ، وكانت روزالين تصوم معها حباً لها ..

كأنها لا ترضى أن تأكل بينما صديقتها محرومة من الأكل ..
كل ما حدث لروزالين خلال هذه الفترة أنها لم تعد متزمتة كل هذا التزمت .. لم تعد تغالى فى أداء شعائر دينها والتردد على الكنيسة .. ولكن ما لم يتغير فيها هو غريزة الخوف .. إنها دائماً حريصة على أداء ما تتصور أنه يكفل لها الأمان .. ودائماً تعود إلى البيت فى الساعة الخامسة ولا تخرج منه إلا فى صباح اليوم التالى .. إنها تخاف الليل .. تخاف الظلام .. وكانت تبدو فى علاقاتها بفوزية كأنها تحتمى بها .. كأنها لا تهدأ ولا تضمن أمنها إلا وهى بجانبها .. وفوزية كانت أكبر من روزالين بعامين وكانت بحكم طبيعتها هى دائماً المسيطرة .. وقد كانت مسيطرة على روزالين كما هى دائماً مسيطرة على زوجها مؤنس ..

وقد انتهت فوزية ومؤنس من دراستهما بعد كل هذه السنوات وحصل كل منهما على شهادته وكانا يجب أن يعودا إلى مصر .. ولم يبد على روزالين أية ظاهرة جديدة فى الأيام التى سبقت يوم الوداع سوى أنها كانت كأنها واجمة تائهة تفكر فى شىء هى حائرة فيه .. إنها لم تقل أنها تفكر فى أن تلحق بهما فى مصر .. ولم تلح عليهما أن يبقيا معها فى أمريكا كما بقى كثير من المصريين الذين تعلموا هناك ولم يعودا إلى مصر .. بل إنها لم تكن تتكلم عما يمكن أن تتأثر به عواطفها بعد الفراق .. إنها فقط واجمة دائماً وفوزية تتبعها دائماً بعينين يحيطانها بالحب والشفقة وتحس أن روزالين مسكينة .. مسكينة ..

وتلقت فوزية خطاباً من روزالين بعد وصولها إلى مصر بأيام .. إنه خطاب طويل .. ثم أعقبه خطابات كثيرة .. كل

أسبوع يصلها خطاب من روزالين وكلها خطابات طويلة لا تقل عن ثلاث أو أربع صفحات فولسكاب ، فى حين أن فوزية لم تكن ترد عليها إلا بخطابات قصيرة سريعة ..

وسألت فوزية وهى تحكى لى :

– ماذا كانت تكتب لك ؟!

ونظرت إلى فوزية فى عتاب كأن ليس من حقى أن أسأل هذا السؤال ثم قالت :

– كلام .. إنها عندما تتكلم لا تكف عن الكلام .. وأيضاً عندما تكتب لا تكف عن الكتابة ..

وكان قد مضى أقل من عام عندما أرسلت روزالين برقية مختصرة : هل أستطيع أن آتى إلى مصر وأقيم معكم .. وردت عليها فوزية بكلمة واحدة .. تعال ..

وجاءت روزالين وهى تبدو هائمة فى الفرحة لمجرد أنها استطاعت أن تجىء إلى مصر .. هل جاءت إلى فوزية أم جاءت إلى مصر .. وقد سألت فوزية :

– ما الذى دفعها إلى المجىء إلى مصر .. مجرد سياحة ؟

وقالت فوزية وهى تتنهد مشفقة عليها :

– لا .. إنها ليست غبية حتى تفكر فى السياحة .. ولكنها كانت قد تعودت على الإحساس بالأمان وهى تقيم معنا فى أمريكا .. وبعد أن تركناها هناك عاد الخوف يسيطر عليها ويعذبها .. إنها خائفة خارج البيت وداخل البيت .. خائفة فى كل خطوة وفى كل دقيقة .. إن نشأتها مع أمها ركبت فيها عقدة الخوف .. ودفعتها هذه العقدة لتلحق بنا فى مصر لعلها تعود وتشعر براحة الأمان .. وقد جاءت وهى لا تدرى ماذا سيكون مصيرها فى مصر .. وأنا نفسى لم أكن أعلم ماذا تريد

أن تفعل في مصر .. هل ستبقى معنا أم هى مجرد زيارة وتعود .. وقد جاءت وهى تحمل حقيبة ملابسها وكلها ملابس عادية ليس فيها ما يبهر .. ثم كانت تحمل حقيبة أخرى كبيرة اكتشفت أنها تجمع فيها عدداً كبيراً من الأحذية .. إن أباها لم يستطع أن يعطيها إلا عددا قليلا من الدولارات لتنفق منها على رحلتها في مصر ، فاضطرت أن تجمع هذا العدد من الأحذية من الدكان الذى تملكه العائلة واشترت بعضها من شركات الأحذية التى يتعاملون معها بقروض بضمان أبيها .. كانت تعتمد على بيع هذه الأحذية كلما احتاجت إلى ما تعيش به في مصر .. وقد باعتها كلها فعلا ..

وقلت وأنا أدعى الدهشة كأنى لا أعلم شيئا :

- ولكنها تعمل في مصر ..

وقالت وهى تتنهد كأنها تتحسر عليها :

- إنها طبيبة متخصصة في علاج اللثة كما لا شك أنك تعلم .. ولكنى أعتقد أنها قطعت دراستها خصيصاً لتأتى إلينا هرباً من الخوف .. خوف الحياة في أمريكا .. كانت تستطيع أن تستمر في دراستها حتى تتخصص في مجالات أوسع .. ولو أن التخصصات في الطب الأمريكى أضيق منها عندنا .. فهناك طبيب متخصص في علاج الأذن وحدها أو الأنف وحده أو الحنجرة وليس طبيبا متخصصاً في الثلاثة معا الأنف والأذن والحنجرة كما هو تقسيم التخصصات عندنا .. وقد جاءت معها بأدوات طبية حديثة على أمل أن تزاول تخصصها أثناء رحلتها .. ولكنها لم تستطع أن تزاولها في مصر بصفة كاملة لأن ليس لها حق العمل كطبيبة .. وقد قدمتها إلى كثير من أطباء الأسنان حتى يستعينوا بها إذا أرادوا ، كما أن

كثيرات من صـديقاتنا وأصدقائنا عرضوا لتـاهم عليها وكانوا يدفعـون لها كطبيـبة .. ولكنهـا بعد أيام قلائل كـانت قد تمنت الإقـامة في مـصر إلى الأبد .. وحـتى تضـمن تكاليف الحيـاة استطاعت بذكائهـا أن تعـمل سكرتيـرة فى مكتب من مكاتب الشركات الأمريكية ..

وقلت وأنا أبحلق فى فوزية بشك كأن هناك سراً لا تريد أن تكشف عنه :

– وماذا دفعها لأن تقرر الإقامة فى مصر ؟!

وقالت فوزية دون أن تلحظ الشك فى نظرتى :

– نفس السبب .. لقـد أحست بالراحة بمجرد وصـولها إلى مـصـر .. إنها تـستطيـع أن تسيـر فى الشـارع بلا خـوف .. وتستطيع أن تسـهر الليل خارج البيت بلا خـوف .. وتستطيع أن تنام وتفـتح كل النوافذ حـولها وتطفىء النور بـلا خوف .. إنها تتصور أن المصريين كلهم يعيشون فى أمان ، ولذلك فهى تريد أن تعيش معهم ..

قلت وأنا ساهم كأنى أحادث نفسى :

– وقد أسلمت ..

وسمعت فوزية ترد علىّ قائلة :

– لقد ترددت أنا وزوجى مؤنس كثيرا قبل أن نعاونها على إعلان إسلامها .. لقد كنا نظن أن كل ما تعرفه عن الإسلام هو ما عرفته منا عندما كانت تقيم معنا فى أمريكا .. وهذا لا يكفى حـتى نطمئن إلـى أنها اقـتنعت وآمنت فـعلا بالإسـلام .. ومن يدرى ربما كان كل ما يدفعـها للإسلام هو حبها لنا وعيـشتها معنا .. بل إن صـديقنا مصطفى عندمـا سمع أنهـا تريد إعلان إسلامها قال إنها ربما كانت من أفراد المخابرات الأمريكية الذين

يدعــون كل شىء حــتى يـصلوا إلى مـــا يحـقق أهداف ــهم .. ولو كانت فى الهند لحاولت اعتناق الدين البوذى أو الهندوكى .. ولكنى أثق فى روزالين .. لا يمكن أن تكون امرأة مخابرات .. ثم إننا اكتشــفنا أن ليس كل ما تعرفه عن الإسلام عرفـته منا .. لقد كانت تقـرأ كثيـراً عن الإسلام وخصــوصاً بعـد أن غادرنا نحن أمريكا وحفظت الكثير من آيات القرآن وتستطيع أن تتلو بعضها بالعـربية .. واقـتنعنا أنا وزوجى أن دوافعـها إلى الإســلام هى دوافع التـحرر من عـقـدتها .. عـقـدة الخوف .. إنهـا تؤمن بأن الإسلام هو دين الأمان وأنه يحدد للمؤمن تفاصيل الحياة بحيث يضمن لنفسه الأمان .. ومع إلحاحها بدأ مؤنس يجمع المعلومات عن إجـراءات إعلان الإســلام .. وعـرفـها بأحـد المشــايخ .. ثم صحبناها إلى المكتب المختص فى الأزهر لإشهار إسلامها ..

وضحكت فوزية قائلة :

– لقد ذهبت معنا إلى الأزهر وهى ترتدى ثوباً عادياً قصيراً يكشف عن ساقيها حتى ركـبتيها .. ولم أتنبه لا أنا ولا زوجى إلى أن فى هذا ما ينافى التقاليـد .. تقاليد المحافظة على مظاهر التدين .. أنا نفسى كنت أرتدى مـثل هذا الثوب العادى .. ولكن الشيخ الذى كان يسـجل إسلامها نهرها وقــال لها إن الإسـلام لا يبيح الكشف عمــا يثير وثوبها يكشف عما يثـير منها .. عن عورة .. فـوعدت مستــجدية بأن تحرص على التقــاليد .. ومن يومها وهى تلبــس هذه الثياب التى تراها بها وتغطيــها كلها .. وأصبح اسمها أمينة .. أنا التى اخترت لها هذا الاسم لأنه اسم المرحومــة أمى وإن كنت لم أتعــود أن أناديها به حتــى اليوم .. وأمينة متــزمتة مغالية فى مظاهر إســلامها كما كانت مـتزمتة مغالية وهى كاثوليكية مسيحية ..

قلت ضاحكاً ساخراً :

– لا يمكن أن تكون متزمتة .. لقد رأيتها تركب موتسكل ..

وقالت فوزية فى حدة كأنها تنهرنى :

– إنها لا تعتقد أن ركوب الموتسكل يتعارض مع تعاليم الإسلام ما دامت حريصة على أن يغطيها ثوبها وهى راكبة .. وقد كان النساء العرب منذ فجر الإسلام يركبن الخيل .. ثم إنها متأثرة بأن الراهبات الخالصات للدين يركبن الموتسكل أيضاً والبسكليت ويقدن السيارات .. ولكنى خفت عليها من إثارة الناس عندما يرونها فى الشارع وهى راكبة موتسكل .. ولم تقتنع بكلامى .. إنها مطمئنة اطمئناناً عجيباً على أمننا فى مصر .. وكانت تركب الموتسكل فى قريتها فى أمريكا ولكنها لم تكن تستطيع أن تركبه فى المدينة الكبيرة .. كانت تخاف أن تثير أحداً من الناس فيضع خطة ليستولى عليها .. أو ليستولى على الموتسكل نفسه فقد يكون بالنسبة له أغلى من المرأة ..

وقلت وأنا أحاول مراضاتها ونفاقها :

– على كل حال فالفضل لك .. أنت التى نزعت عقدة روزالين .. عقدة الخوف .. منذ أن دعوتها للحياة معك فى أمريكا .. ثم دعوتها إلى مصر .. وعاشت معك فى بيتك .. وكفلت لها كل ما تتطلبه الحياة ..

ولم تقل لى فوزية أن روزالين تدفع لها تكاليف حياتها معها .. تدفع إيجاراً للحجرة التى تقيم فيها ، وتدفع نصيبها من كل نفقات الحياة .. وفوزية ليست فى حاجة لأن تدفع لها روزالين .. ولكن هذه هى الحياة الصحيحة .. كل يتحمل نفقات نفسه .. هكذا الحياة فى أمريكا .. ولكن فوزية ردت قائلة :

– إنى أحب أمينة وأثق فيها وأستريح لها ..

ولم أحاول أن أسألها عن مدى هذا الحب ولا عن نوعه حتى أرضى لهفتى .. وحتى لا أكشف عن شكوكى فى تصور ما بينها وبين روزالين ، ولكن بعد تبادل كلمات عائمة عدت أسألها :

– هل تعتقدين أن أمينة ستكون سعيدة مع عبد الوهاب البرعى ..

وقلت اسم أمينة كأن الذى سيتزوجها عبد الوهاب هى أمينة وليست روزالين ..

ورأيت فوزية تلوى شفتيها فى قرف ثم تعتدل فى جلستها فى عصبية وتقول :

– لا أدرى .. على كل حال لم يكن عبد الوهاب هو أول من تقدم لها ..

وقلت فى دهشة :

– هل تقدم لزواجها كثيرون ..

وقالت وهى لا تزال تعبر عن قرفها :

– البعض .. وكانت ترفضهم ..

وقلت من خلال دهشتى :

– لماذا يتقدمون لها .. ولماذا ترفضهم .. اسمحى لى أن أقول لك إنها ليست رائعة الجمال ..

وقالت وهى تضحك ضحكة مرة ساخرة :

– ربما لأنها أمريكية .. والجنسية الأمريكية لها إغراء .. إن من يتزوج أمريكية يصبح من حقه أن يحصل على الجنسية الأمريكية.

قلت :

– ولماذا قبلت أن تتزوج عبد الوهاب ..

قالت وشفتاها مقلوبتان :

– ربما لأنها اقتنعت بأنه مسلم متدين مما يتوافق مع إسلامها وتدينها ..

قلت كأنى أحقق معها :

– وهل وافقت أنت على هذا الزواج ..

وقالت وهى تقفز واقفة من جلستها :

– ليس من حقى أن أوافق أو أرفض .. إنها حرة ..

ثم كانت المرة الثالثة التى أزور فيها فوزية فى الصباح لأختلى بها وأجرها إلى إشباع لهفتى على كشف الأسرار .. ولم أكن قد التقيت فى المرتين السابقتين بروزالين .. كانت دائماً خارج البيت .. وفى هذه المرة وقبل أن تنتهى الزيارة فتح الباب الخارجى بمفتاح ودخلت روزالين عائدة من الخارج .. وابتسمت لى ابتسامة ضيقة من خلال شفتيها الرفيعتين قائلة بالإنجليزية :

– هاللو ..

قلت وأنا أمد يدى مصافحاً :

– كنا نتحدث عنك ..

وقالت وهى تشد يدها من يدى بسرعة كأنها لا تطيقنى :

– ليس فىّ ما يستدعى الكلام .. لست أول أمريكية تقيم فى مصر .. ولست أول أمريكية تعلن إسلامها .. عن إذنك ..

وتركتنى وجرت داخل البيت وفوجئت بفوزية تشدنى إلى باب الخروج وهى تقول بالإنجليزية أيضاً فى ابتسامة منفعلة :

– سأراك مرة أخرى يا حسين .. مع السلامة ..

وأغلقت الباب ورائى دون أن تودعنى بنظراتها كأنها فى عجلة لتلحق بروزالين ..

●●●

كانت قد مضت خمسة أيام لم أر فيها عبد الوهاب البرعى ، ورأيته بعد أن تعمدت البحث عنه وقلت له ونحن جالسان فى محل حلوانى بالزمالك :

– ما آخر أخبار أمينة ؟
قال بلا اهتمام :
– لا جديد ..
قلت مبتسماً :
– كيف لا جديد .. إن كل كلمة بينكما تقدم لك ولها جديد ..
قال فى صوت عادى :
– إننا نتحدث فى التليفون .. ولا طاقة لى على التليفون ..
قلت فى دهشة :
– ألم تلتق بها ..
قال بلا حماس :
– لماذا .. إننا سنلتقى يوم الزواج ..
وصحت وأنا مغتاظ منه :
– لا يمكن يا رجل .. يجب أن تلتقيا كل يوم حتى تعرفها أكثر وتعرفك أكثر وتتفقا على ما تريده منها وما تريده منك ..
وقال بلا اهتمام :
– لم يطرأ على بالى هذا الكلام .. إننى فى انتظار يوم الزواج .. وأحدثها فى التليفون كل يوم لأطمئن عليها ..
ربما كان عبد الوهاب يعيش أيام جده وجد جده عندما كان كل ما بين العروس والعريس لا يبدأ إلا بعد عقد القران .. بعد استكمال كل الأصول الشرعية .. إنه لا يسعى إلى لقاء خطيبته .. وطبعاً لم يقبلها قبلة واحدة .. ولا حتى تحسس يدها .. وصرخت فيه :
– اسمع يا عبده .. يجب أن تقابلها .. لتذهب إليها الليلة وأنا مستعد أن أكون معك .. فإن هناك تفاصيل كثيرة لم تتفقا عليها بعد ..

وقال فى هدوء :

– لا مانع .. سأتصل بالتليفون .. وألتقى بك الساعة السابعة كما تعودنا فى النادى ونذهب معاً كما سبق أن فعلنا .

وهدأت حدتى وقلت لعبد الوهاب بعد أن التقطت أنفاسى :

– إنك لم تقل لى يا عبده كيف عرفت أمينة ..

وقال هادئاً :

– لقد قلت لك إنى كنت أقول لإخوتى البنات وهن يلححن على أن أتزوج بأنى أريد الزواج من فتاة لها شخصية الفتاة الأوربية القوية الكاملة على أن تكون مسلمة متدينة .. لم أكن أريد زواج أوربية ، ولكن فتاة فى قوة شخصية الفتاة الأوربية .. إلى أن جاءت أختى نظيرة وهى طالبة فى الجامعة الأمريكية كما تعرف وقالت لى أنها التقت بأمينة وأنها فتاة أمريكية ومسلمة وأنها ترشحها زوجة لى .. وفكرت .. وانتهى تفكيرى بأنه ما دامت أمينة مسلمة فلا يهم إذا كانت أمريكية أجنبية .. وهكذا تقدمت لخطبتها وزواجها ..

وقفز تفكيرى كله وانحصر فى نظيرة .. إنى منذ رأيتها لم تغب عن فكرى .. سمارها .. وقوامها .. وجرأتها .. ولمعة عينيها .. وشخصيتها الأقرب إلى شخصية بنات البلد المثيرة .. وكنت أتمنى أن أراها .. بل ربما لم أكن أبحث عن عبد الوهاب إلا لألتقى بأخته ..

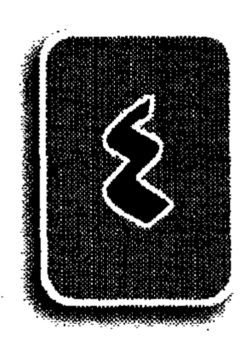
وقلت له فى حماس :

– يجب أن تأتى نظيرة معنا فى زيارة أمينة .. ما دامت هى السبب ..

وقال بلا مبالاة :

– سأقول لها ..

ومضت الساعات وأنا فى انتظار لقاء نظيرة ..



ذهبت إلى النادى قبل موعدى مع عبد الوهاب بمدة وجلست فى انتظاره .. ربما لم تكن أحاسيسى فى انتظار عبد الوهاب ولكنها كانت فى انتظار أخته نظيرة بعد أن اتفقت معه على أن يصحبها معه .. أن نظيرة بدأت تشغل بالى بشكل مثير دون أن أدرى سبباً لذلك .. بل إنى كنت أبتسم ساخراً من نفسى كلما تذكرتها .. ماذا أريد منها .. قطعاً لا أريد منها شيئاً ، أو أنى حتى هذه الأيام لم أكن قد قررت أنى أريد منها شيئاً .. إن شخصيتها هى التى جذبتنى وهى التى تشغل بالى .. شخصية بنت البلد التى استطاعت بجرأتها أن تتطور وأن تلتحق بالجامعة الأمريكية دون أن تفرط فى شخصيتها .. شخصية بنت البلد .. بكل ما فى بنت البلد من إثارة ..

وفوجئت إلى حد الانبهار عندما رأيت نظيرة تدخل وحدها إلى ساحة الليدو فى النادى حيث كنت فى انتظار أخيها عبد الوهاب .. إنها هى الأخرى جاءت قبل موعدنا .. وهى

تسير بخفة مرتدية ثوباً ليس فيه شيء من تزمت أخيها وتعاليم مظاهر الإسلام .. فهو ثوب يكشف عن ذراعيها ويرتفع إلى ركبتيها وإن كان ثوباً يعتبر محتشماً ولا يكشف عن صدرها ولا يضيق أكثر من اللازم حول خصرها .. وضفيرتها الطويلة السوداء تلتف حول عنقها وتنام فوق كتفها كأنها خيط الليل المثير .. وأخذت تصافح وتهلل مع كثير من بنات وشبان النادى الذين تزدحم بهم ساحة الليدو .. رغم أنى أعرف أنها ليست عضواً فى النادى ولم أرها تتردد عليه كثيراً .. إلى أن لمحتنى من بعيد فابتسمت ابتسامة واسعة وجاءت إلىّ وقالت فى مرح :

– أهلا حسين .. كيف حالك ؟

صافحتنى وقالت اسمى فى بساطة كأننا أصدقاء قدامى رغم أننا لم نلتق إلا مرة واحدة وفى صحبة أخيها .. وقلت وأنا أقف مرحباً وأحاول أن أضع فى صوتى رنة تعبر عن اهتمامى بها :

– كيف حالك أنت .. أوحشتنى ..

قالت من خلال ابتسامتها الواسعة :

– حالى رائع .. وقد جئت قبل الموعد .. هذه فرصة لأجالس صديقاتى وأصدقائى .. اسمح لى ..

قلت وأنا لا أزال ممسكاً بيدها التى صافحتنى بها :

– لقد التقينا بلا موعد .. فابقى معى إلى أن يحين الموعد ..

ونظرت إلىّ نظرة واسعة كأنها دهشت من شيء جديد اكتشفته ثم قالت فى لهجة مرحة كأنها قررت أن تقبل على تجربة جديدة :

– لا مانع ..

وشدت مقعداً وجلست بجانبى وهى تستطرد قائلة :

- إن كل صديقاتى وأصدقائى وكل طلبة الجامعة الأمريكية تقريباً يجتمعون فى هذا النادى .. ورغم ذلك فلا يخطر على بالى أبدا أن آتى إلى هنا .. ولا آتى إلا بالصدفة ..

وقلت وأنا أبتسم كأنى أحاول أن أغريها بابتسامتى :

- اليوم ليس صدفة .. فأنا الذى أقنعت أخاك عبد الوهاب لنلتقى معاً ..

قالت فى بساطة صريحة :

- لماذا كنت تريدنا أن نلتقى ..

قلت وأنا أحاول أن أكون مثلها بسيطاً مريحاً :

- لسببين .. سبب أعرفه وسبب لم أعرفه بعد أو على الأقل لا أستطيع حتى الآن أن أعبر عنه ..

وقالت ضاحكة وهى تنظر إلىّ كأنها فهمتنى :

- دعنا من السبب الذى لا تعرفه وإلى أن تستطيع أن تعبر عنه . إنى أعذرك .. إن الإنسان فى حاجة إلى وقت حتى يعرف ما يريد ويكون صادقاً فيما يعرفه .. حدثنى عن السبب الآخر الذى تعرفه ..

إنها ذكية هذه الفتاة .. كأنها قدرت ما أعنيه .. أو كأنها تعودت أن يبدأ معها كل شاب أسطوانة الغزل .. وقد تماسكت بسرعة وتقمصت شخصية أكثر جدية حتى لا تعتبرنى أحد الشبان الذين يغازلونها .. وقلت فى صوت جاد :

- لقد كنت أريد أن أعرف رأيك فى روزالين ..

وقالت فى بساطتها الحلوة :

- ليس لى رأى فيها ..

وقلت فى دهشة :

– كيف لا يكون لك رأى فيها .. إنها ستكون زوجة أخيك ..

وقالت ضاحكة :

– يكفى رأى أخى فيها .. إنه هو الذى سيتزوجها ..

وقلت كأنى ألومها :

– إنك على الأقل يجب أن تطمئنى على أخيك بعد زواجه منها .. إن أخاك صديقى ولهذا فإنى أحاول أن أعرف روزالين حتى أطمئن عليه ..

وقالت من خلال ابتسامة ساخرة :

– هذا تدخل فيما لا يعنيك .. إنى أنا وأنت نعلم أن ليس هناك جريمة ولا خطيئة أدت إلى أن يطلب عبد الوهاب الزواج من روزالين .. أما من هى روزالين ومن هو عبد الوهاب فهذا ليس من اختصاصنا .. يكفى رأى كل منهما فى الآخر .. لذلك لم أحاول أن أدوش دماغى لأحدد رأيى فى روزالين ..

قلت وكأنى أقاوم عنادها :

– ولكنها صديقتك .. ولا شك أنك تعرفين عنها أكثر مما يعرفه أخوك عبده ..

قالت ضاحكة :

– إنها ليست صديقتى ولم تكن أبدا صديقة .. كل ما هنالك أنى سمعت يوماً من إحدى زميلاتى فى الجامعة أن هناك فتاة أمريكية جاءت إلى مصر وحيدة وأعلنت إسلامها فدفعنى حب الاستطلاع والفرجة على الغرائب لأن أطلب من زميلتى أن تعرفنى بها .. وصحبتنى زميلتى إليها فى الشركة التى تعمل بها .. وقلت لها إنى أقوم بدراسة عن التأثيرات الاجتماعية

وإنى أريد أن أجلس معها حتى تساعدنى فى ناحية من نواحى هذه الدراسة فحددت لى موعد لقاء فى البيت الذى تقيم فيه .. بيت فوزية الباجورى .. وذهبت فى الموعد بلا حماس فهى لم تشدنى بشخصيتها فهى كما تعلم ليست جميلة وهى تبقى مدة طويلة صامتة فإذا تكلمت فلا تكف عن الكلام وتخرج بكلامها عما يهمك .. ورغم ذلك فقد تمتعت عندما جلست معها .. تمتعت بغرابة شخصيتها .. وقالت لى بعض الكلام الذى أثار اقتناعى واحترامى .. قالت لى مثلاً إن الدين لا يورث .. وأن الفرد لا يجب أن يعشق ديناً لمجرد أنه وجد نفسه فيه .. وجد نفسه مسلماً أو مسيحياً أو يهودياً .. بل يجب أن يتحرر أولا .. أن يولد بلا دين .. ثم يبحث بنفسه ولنفسه إلى أن يجد الدين الذى يملأ إيمانه ويقنع عقله ويسيطر على أحاسيسه فيلجأ إليه ويعيش فيه .. يعيش الإسلام أو المسيحية أو اليهودية .. وهى قد ولدت ووجدت نفسها مسيحية كاثوليكية .. ولكنها استطاعت أن تتحرر وتبحث لنفسها بنفسها إلى أن آمنت بالإسلام فاعتنقته .. وهى تعيش اليوم هادئة سعيدة مطمئنة بإيمانها .. تعيش الإسلام .. أصبح إسلامها هو وجودها .. وقد أثر فىّ هذا الكلام واقتنعت به .. وإن كنت لم أستطع أن أطبقه على نفسى .. لم أستطع أن أتحرر من الإسلام حتى أبدأ فى البحث عن الدين بنفسى ولنفسى ، ولو عدت إلى الإسلام أعيش فيه بعقلية اخترته لا بعقلية توارثته .. ولكن يبدو أن الإسلام مسيطر علىّ إلى حد أنى لا أستطيع أن أتحرر بعيدا عنه لبضع دقائق .. وقد كانت طوال حديثها معى تنظر إلى فوزية كأنها تسألها رأيها

فـيمـا تقـول .. وفوزيـة تجلس بيننا تسـمـع دون أن تنظر إلىّ أو إليها .. وقد أثارت فى فوزية لغزاً آخر أريد أن أعرفه .. وبدأ الشـك يعـتـرينى .. ربما لـم تعـتنق روزالين الإسـلام إيمـاناً أو اقتناعـاً إنما فقط بتأثير صـديقتهـا فوزية .. لذلك طلبت أن أقابلها مرة أخرى .. وقابلتها ..

وكانت نظيرة تتكلم بلهجة لا تتفق مع مظهرها .. مظهر بنت البلد .. إنها تتكلم بلهجة دراسـية عميقة تتغلب فيهـا شـخصية الطالبة فى الجـامعة المتفـوقة فى دراسـتـها .. وقد أعجـبت بها فعلاً إعـجاباً له لون جديد .. وقاطـعتها وأنا أسـألـها من خلال إعجابى :

– المهم كيف التقى بها أخوك عبد الوهاب ..؟

وضـحكت نظيرة قائلة :

– كانت نكتة أو لعبـة لعبتها كما تعودت .. فـعبده هو أقرب إخوتى إلىّ .. بل إنـه لا يعتبـر أن له أختـاً أو أخاً إلا أنا .. وأنا الوحيدة التى يتحدث معها طويلا عن دخيلة نفسه .. وكانت من أهم أمانيه بعد أن عاد إلى أوروبا أن يتزوج فتاة مسلمة ولكنها تتميز بشـخصية أوربية .. فهو يؤمن بأن الشـخـصية الأوربية للفتاة شـخصية قوية تحمل مـسئولية نفسـها .. وبعد أن عرفت روزالين تساءلت ساخرة .. لماذا لا تكون هى الفتاة التى يريدها أخى .. إنها شـخصية أوربيـة أو أمريكية ومسلمة .. إنه لا يريد أكثر من ذلك .. كنـت أفكر كأنى أفكر فى نكتة أطلقهـا أو لعبة ألعبهـا .. وعرضت الفكرة على أخى فإذا به يقـبلها فوراً .. إنه فى حالة نفـسية تجعله يتـعلق بأى حبل يمد إليـه أو أى قطعة خشب تنقذه من الغرق .. وعندما قـابلت روزالين للمرة الثانية

قلت لها إن أخى يتـمنى أن يلقاها ، وحدثتـها عنه طويلا وقلت لها إنه مـؤمن دارس متفـرغ للدين الإسلامى .. وكنت أكلمـها جادة كأنى أتقدم لخطبتـها فعلا ولكنى بينى وبين نفسى كنت أضـحك سـاخرة .. كـنت ألعب .. ونظرت روزالين إلى فـوزية كـأنها تسـألها .. ثم وافـقت على أن تنتظر زيارة أخى .. وقـد ذهبت معه فى الزيارة الأولى .. وجـلس عبد الوهاب وروزالين أحدهما بجـانب الآخر يتكلمان حديثاً جاداً ، وكـان الحديث قد شـد أحـدهمـا إلى الآخر .. وخـرجنا علـى أن يلتـقيـا غـدا .. ولم أذهب معه بعدها .. بل إنـى كدت أنسى الموضوع كله كأن النكتة قد انتهت .. إلى أن فوجئت بعد أسبوعين بأخى يخبرنى أنه اتفق مع روزالين على الزواج .. لقـد كان يقابلـها ولم يكن يقـول لـى .. ولم أهتم .. لعل أخى يـتـسلى حـتـى لو وصلت التسلية إلى حد الزواج ..

وقلت مندهشاً :

– هل أحبها وأحبته فى أسبوعين فقط ؟

وقالت ضاحكة :

– لا أدرى ..

قلت من خلال دهشتى :

– ولكنى سمعت أن روزالين تقدم إليهـا كثير من المصريين وكانت ترفض الزواج بكل من يتقـدم لها .. فلماذا قبلت الزواج من عبد الوهاب ..

وقالت نظيرة من خلال ابتسامة ساخرة :

– هل تريد رأيى .. إنى أعتقـد أن ما جمع بينهمـا هو أنهما الاثنين من الشـواذ .. لا أقصـد الشـذوذ الجنسى طبعـاً ولكنه

شذوذ فى الشخصية .. فأخى عبد الوهاب ليس فى شخصية طبيعية ولا هى فى شخصية طبيعية .. فاتفقا على أن يعيشا معاً كأن كلا منهما قرر أن يبحث عن شخصيته فى الآخر .. يبحث عن الغيب ..

وأحسست بالحيرة فى كلام نظيرة .. إنى أعلم أن عبد الوهاب ليس فى شخصية طبيعية فعلا .. إن حياته كلها شاذة .. وروزالين أيضاً لا تبدو كفتاة طبيعية .. ولكن هل يكفى هذا الشذوذ للزواج .. وقلت من خلال حيرتى :

– إنه على كل حال زواج كله شاذ .. إن عبد الوهاب حتى الآن لم يحدثنى عن أى شئ اتخذه استعداداً للزواج .. أين سيقيم مع زوجته .. إنى أعلم أنه لم يؤجر شقة .. هل سيقيمان فى بنسيون أم سيعيش مع زوجته عند فوزية ..

وقالت نظيرة فى بساطة :

– إنه سيقيم هو وزوجته معنا ..

وصحت :

– فى نفس شقة العائلة ؟

وقالت نظيرة بلا اهتمام :

– إنها شقة كبيرة تشمل الدور العلوى كله من العمارة وعندنا ست غرف نوم ستخصص غرفتان منهما لعبد الوهاب وزوجته .. وقد وعده أبى بأن يخصص له شقة فى العمارة إذا خلت شقة .. وإن كان باباً لا يتمنى أن تخلو شقة ..

وقلت فى لهفة :

– هل علم أبوك بهذا الزواج ؟ وما رأيه ؟

وقالت نظيرة فى برود :

- لا رأى له ..

وصحت كأنى أكاد أجن :

- كيف لا يكون له رأى وابنه سيتزوج فتاة أمريكية وسيأتى بها لتعيش معه ..

وقالت نظيرة من خلال ابتسامة ضيقة :

- إن أبى مثلى أو إنى أنا مثله فهو لا يتعب نفسه فى تحديد رأى إلا فيما يحتاج إلى رأيه .. وزواج عبد الوهاب لا يحتاج إلى رأيه .. إن ابنه يتزوج امرأة اختارها لنفسه ولن يكلفه الزواج أو الإقامة معنا أكثر مما قدر .. فليترك ابنه يفعل ما يشاء .. ما دام ليس فيما يفعله أى إيذاء أو خسارة ..

وقلت وأنا أكبت حيرتى وغيظى من هذا الأب :

- إنى لا أريد أن أتحدث عن أبيك .. هذا موضوع آخر ..

وقالت ضاحكة :

- أحسن .. لا تتحدث عنه ولا تجعل منه موضوعاً .. لقد جاء أخى .. هيا بنا ..

وقامت منطورة فى مرح وكان عبد الوهاب قد جاء وهو يسير بين الجالسين فى حذر عكس ما جاءت هى ، وتنقلت مهللة بين الجالسين .. وأخذت أخاها من يده قبل أن يقرأ السلام وهى تردد :

- هيا بنا ..

وركبنا السيارة .. عبد الوهاب بجانبى ونظيرة فى المقعد الخلفى كما تقضى تقاليد عبد الوهاب ، وأنا تائه حائر فى كل ما سمعته من نظيرة ثم قلت كأنى أحاول أن أهرب من حيرتى :

– اسمع يا عبد الوهاب .. لا يمكن أن تبقى خمسة أيام دون أن ترى خطيبتك .. يجب أن تراها كل يوم إن لم تكن كل ساعة.

وقال وهو يضحك :

– كلها كام يوم وأعيش معها ..

وقلت وكأنى أشخط فيه :

– لقد قلت لك أنك يجب أن تعرفها كلها قبل الزواج إنى متأكد أنك حتى لم تتبادل معها قبلة واحدة ..

وقال عبد الوهاب مبتسماً فى خشوع :

– إن ما تصل إليه فى الحرام ستصل إليه لو انتظرت فى الحلال ..

وصحت :

– إنها خطيبتك وقد أصبحت كلها حلالاً لك رغم أنى لا أوصيك إلا بقبلة ..

وقال فى هدوء :

– الحلال يعلنه الشرع ..

والتفت إلى نظيرة قائلاً :

– ما رأيك فى أخيك .. هل يعجبك هذا الحال ..

قالت ضاحكة :

– دع كل واحد يعش كما يريد ..

وقلت كأنى أتعمد سؤالها :

– لو كنت أنت مخطوبة هل تحرمين خطيبك من مجرد قبلة بحجة الحلال والحرام .. إن القبلة فى حالة الخطوبة تعتبر تعارفاً فى الحلال ..

وقالت نظيرة ضاحكة :

- انتظر إلى أن أخطب وبعدها سأقول لك ما يحدث بينى وبين خطيبى .. ومن يدرى ..

وكنا قد وصلنا إلى بيت روزالين ..

واستقبلتنا بفرحة هادئة .. وفوزية كما هى العادة لا يبدو عليها شىء .. لا هى فرحة ولا هى ليست فرحة .. ودار حديث عادى ..

وكان زوجها مؤنس جالساً بجانب عربة المشروبات التى كانت معدة وقال قبل أن يبدأ الحديث :

- لنبدأ ..

كأنه كان يهمه أن يطفىء عطشه هو لا عطشنا .. والعربة كما هى العادة تحمل الحلال والحرام .. عصير الليمون وزجاجات الكمبارى والجين والويسكى ..

وتعمدت أن أشرب شفطة من عصير الليمون ثم قمت قائلا :

- آسف يجب أن أعود .. عندى موعد ..

ولم يتمسك بى أحد ولا عبد الوهاب ولكنى فوجئت بنظيرة تقوم وهى تقف بجانبى :

- خذنى معك .. يجب أن أعود إلى البيت ..

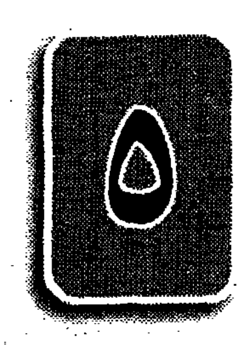
ونظر أخوها عبد الوهاب إليها فى دهشة ثم نظر لى فى لوم كأنه لا يوافق على أن تخرج أخته معى وحدها ولكنه لم يعلق بشىء ..

وقلت لنظيرة وهى بجانبى فى سيارتى :

- هل يمكن أن نعود ونجلس فى النادى لنتم حديثنا ..

وقالت من خلال ابتسامة تقطر بالخبث كأنها تفهمنى :

– لا .. لا أستطيع .. يجب أن أعود إلى البيت ..
وقلت كأنى أصارحها بالرجاء :
– هل لا أستطيع أن أتصل بك إلا عن طريق أخيك عبده ..
قالت ضاحكة :
– هل أنت قوى أم ضعيف ..؟
وقلت فى دهشة :
– ماذا تقصدين ؟
قالت من خلال ضحكتها :
– لو كنت قوياً فانتظر إلى أن أتصل بك وأعطنى رقم تليفونك ، أما إذا كنت ضعيفاً فسأعطيك رقم تليفون البيت وحاول أن تتصل بى ..
وسكت ..
وعادت تسألنى :
– لماذا سكت ؟
وقلت وأنا لا أنظر إليها :
– إنى أفكر فى مدى قوتى وضعفى بالنسبة لك .. ولكنى أعتقد أنى ما زلت فى منتهى القوة ..
وأوقفت السيارة أمام العمارة .. عمارة أبيها .. وأخرجت ورقة وقلماً وكتبت رقم تليفون بيتى الذى أقيم فيه مع أبى وأمى وإخوتى .. ورقم تليفونى فى الشركة الهندسية التى أعمل بها .. ورغم تليفون الشقة التى أحتفظ بها والتى أسميها مكتبى الخاص .. وأعطيتها الورقة وأنا أقول متعمداً اللامبالاة:
– حاولى أن تبحثى عنى ولن أبحث عنك مهما أردتك ..
وخطفت الورقة من يدى وقفزت من السيارة دون أن ترد علىّ ..



كنت بينى وبين نفسى أكاد أطق بالغيظ من نظيرة .. خيل إلىّ أنها استطاعت أن تسخر منى وتخدعنى .. نظيرة ابنة الحاج عبد الغفور البرعى تاجر وكالة البلح .. خدعتنى عندما قالت لى كأنها فيلسوفة زمانها أن الرجل القوى هو الذى يترك البنت تجرى وراءه والرجل الضعيف هو الذى يجرى وراء البنت ، ودفعتنى إلى أن أدعى بأنى رجل قوى فأعطيتها رقم تليفونى لتتصل بى ولم أحصل منها على وسيلة أستطيع بها أن أصل إليها .. وقد كنت غبياً .. إنى بذلك أصبحت مستسلماً لها وأعطيتها الحق فى أن تتحكم فىّ .. إما أن يوحى لها مزاجها بالاتصال بى أو لا تتصل .. إما أن تمن علىّ بكلمة وابتسامة وإما ألا تمن بشىء وتشوطنى بعيداً عنها .. وليست هذه هى ميزة الرجل القوى .. إنها صفة الرجل الضعيف المنهار خدام البنات .. أن الرجل القوى هو الذى يحدد ما يريد ثم يفرض إرادته ليصل إلى ما يريد .. وأنا أصبحت أعترف بأنى

أريد نظيـرة .. لم أحدد بعـد ما أريده منهـا .. ولكنى أريدها .. وصحيح أنهـا لم تكن تخطر على بالى أبدا وأنا أراها منذ كانت صغيرة بين بنات الزمالك .. ولكن بعد أن جمعتنا مشكلة أخيها فى الأيام الأخيرة أحسست كأنها تتسلل إلى داخل عروقى إلى أن أصبحت تسيطر على كل بالى .. ربما لأنهـا كبرت ونضجت وأصبح جمـالها الذى ينعكس علىّ كأنه جمـال بنت بلد يثيرنى ويثير أمنيـاتى .. ربما كان مجرد إعجـاب أو لعله شىء أكثر .. ربما كانت شـخصيـتها الجـريئة الصـريحة قد رسـمت أمامى صـورة المرأة التى أحلم بهـا .. لا أدرى إلى الآن ما هى ومـاذا أريد منها ..

وكانت قد مرت خمـسة أيام ولم تتصل بى نظيرة .. وكنت طوال هذه الأيام فى حـالة انتظار .. كنت أذهب إلى عـملى فى الصباح وتتعلق عيناى بالتليفون القريب .. لعلها تتكلم .. وأعود إلى البيت وأبقى فـيه على غيـر عادتى وأنا بجانب التليـفون .. وقضيـت ليلتين فى شقتى الخـاصة التى أسميـها مكتب ، وأنا فى انتظار التليـفون .. وأنا لم أتعـود أن أذهب إلى هذه الشـقة ـ أقصـد المكتب ـ إلا وأنا على مـوعد .. ولكنى أصبـحت أذهب وحـدى فقط لانتـظار التليفـون لعله يرن .. إنـى أتفاءل بهـذه الشقة وأستبشر الخيـر دائماً من هذا التليفون ، فقد تعودت أن أقـضى أجمـل وأمتع أيام شـبـابى هناك .. لعلهـا لا تحس بما يدفعها للتحدث إلىّ .. لا تحبنى .. ولم تجد فىّ ما يغريها بى .. أن الرجل القوى الذى تخـيلته ليس قوياً بالنسبـة لها .. ولكنى يجب أن أكون قوياً .. يجب أن أصمم على عـدم السعى إليها .. إنى أستـطيع أن أتصل بأخيـها عبـد الوهاب لأصل به إليـها ..

ولكنى لن أتصل .. لا أريدها .. فى ستين داهية .. إنها مجرد واحدة من عشرات البنات اللاتى أعجبت بهن دون أن يدفعنى الإعجاب إلى السعى وراءهن ولا حتى مجرد أن أتمناهن ..

وكانت الساعة الرابعة بعد الظهر وكنت قد قررت أن أخرج من البيت وأبدأ حياة الحرية .. ولكن التليفون رن .. وتركت أمى ترد .. إنها نظيرة تسأل عنى وكانت صريحة وأمى تسألها عمن تكون .. وقالت كل اسمها .. نظيرة عبد الغفور .. وأمى تقول لها .. ازيك يا بنتى .. وأمى لم تكن تعرفها ولكنها تعرف اسم عبد الغفور .. المليونير البخيل الذى تعرفه كل مصر .. وأمى تعرف أيضاً أنى صديق ابنه عبد الوهاب .. ولا شك أن أمى كانت سعيدة وهى تسمع اسمها .. سعيدة لأن ابنها يعرف أولاد وبنات المليونير .. وأعطتنى السماعة وما كادت نظيرة تسمع صوتى حتى صاحت :

– هل سمعت آخر الأخبار ..

وتعمدت أن أضغط على أعصابى وأكون هادئاً حتى لا أكشف عن أنى كنت فى انتظارها .. وقلت فى صوت كتمته أعصابى فخرج غليظاً :

– خيراً ..

قالت كأنها فرحة :

– لقد زارتنا روزالين فى البيت ..

قلت ساخراً :

– جاءت لتطمئن إلى الحجرات التى ستقيم فيها ..

قالت بصوتها المرح الذى ترن فيه لهجة بلدية :

– لقد دعتنا كلنا .. وتحدد الزواج يوم الخميس القادم ..

وقلت وأنا أتعمد أن أبدو لا مباليـاً .. أتعمد أن أكون واد تقيل :

– إذن سأراك يوم الخميس ..

وصاحت فى بساطة :

– لا .. أريد أن أراك لأحكى لك .. ماذا ستفعل الآن ..

قلت وقد أحسست بابتسامة الانتصار بين شفتى :

– لا شىء ..

قالت بسرعة :

– سأراك ..

قلت مشبعاً بغرورى بنفسى :

– فى النادى ..

قالت :

– لا .. إنى أحس فى النادى بأنى فى الجامعة .. مر على بسيارتك أمام باب العمارة .. إن سيارتك دمها خفيف ..

قلت وأنا أكثر سعادة :

– متى ؟

قالت كأنها تنهى الحديث :

– بعد دقيقتين سأكون فى انتظارك أمام الباب ..

و ألقت سماعة التليفون دون أن تنتظر ردى .. لعلها واثقة فى نفسها إلى هذا الحد .. أو لعلها لم تتعمد ولكنها طبيعتها .. لا تنتظر الرد إلا على ما يستحق الرد ..

وركبت سيارتى .. إنها فعلا سيارة دمها خفيف .. سيارة يابانية خاصة موديل ٧٥ اشتريتها مستعملة بدلاً من أن أشترى سيارة ١٢٨ التى لا أستطيع أن أدفع أكثر من ثمنها

فى أى نوع من السيارات الأخرى .. اشتريتها لأنى أيضاً أحب التباهى بالسيارات ذات الدم الخفيف ..

وقفزت نظيرة إلى جانبى فى السيارة وهى تقول من خلال ابتسامة شفتيها المكتنزتين :

– أهلاً .. أوحشتنى ..

وقلت وأنا أحس بأنى استعدت كل طبيعتى وكل مواهبى :

– أنت السبب فى الوحشة .. مضى عليك خمسة أيام ولم تتحدثى فى التليفون .. لماذا .. يبدو أننى لست الرجل القوى الذى كنت تتصورينه ..

قالت من خلال ابتسامتها الحلوة :

– كنت أفكر ..

قلت ساخراً :

– تفكرين هل أستحق أو لا أستحق ؟

قالت وهى تدير عينيها عنى كأنها تحادث نفسها :

– لا .. كنت أفكر فى مدى قوتك علىّ .. وأنا أكثر صراحة منك .. فقد صارحت نفسى بأن كل ما بيننا لم يعد موضوع أخى عبد الوهاب وروزالين .. ولكنه موضوع بينى وبينك .. ولذلك انتظرت حتى اقتنعت بأن قوتك تفرض علىّ أن أحدثك فى التليفون .. ودعنا من هذا الآن لأحدثك عن زيارة روزالين ..

وأخذت نظيرة تتحدث بلا توقف كأنها لا تريد أن تستسلم لى لأتحدث أنا خشية أن أتحدث عنى وعنها ..

إن روزالين هى التى طلبت من عبد الوهاب أن يصحبها لزيارة العائلة .. ولم يكن عبد الوهاب يريد هذه الزيارة .. إن

العائلة لا دخل لها بزواجه .. وسيعيش مع زوجته داخل بيت العائلة كأنه يعيش في بنسيون .. لا هو له دخل في شئون العائلة ولا العائلة لها دخل في شئونه .. وتكاليف الحياة العائلية معروفة .. أبوه يعطى الرصيد لأمه وأمه توزع على الأفراد بالاتفاق مع كل منهم بجانب تكاليف الأكل والشرب وإدارة باقى احتياجات العائلة .. وهو يعلم مقدماً ما سيفعله أبوه بعد أن تدخل روزالين العائلة سيرفع من مصروف البيت الذى يعطيه لأمه وسيرفع أيضاً من مصروفه الخاص .. إن أباه يعطيه الآن مائة جنيه فى الشهر لعله يرفعها إلى مائة وخمسين بعد أن يتزوج .. ولكن روزالين تصر على أن تدخل البيت وتتعرف بالعائلة قبل أن يتم الزواج .. وقد صحبها عبد الوهاب دون أن يبلغ أحداً بهذه الزيارة ، وفوجئت العائلة كلها برؤية روزالين .. وفوجئوا بوجهها الجامد .. ولكنها كانت لطيفة لا تسحب ابتسامتها من فوق شفتيها الرفيعتين .. ودخلت الغرفتين المخصصتين لها هى وزوجها بعد الزواج .. إنها فى الأصل غرفة عبد الوهاب التى يقيم فيها وغرفة أخيه عبد الستار الذى يقيم فى الخارج منذ سنوات .. وأعجبتها الغرفتان ولم تعلق بشىء حتى ولا برغبتها فى أن تبدل من الأثاث وتشترى على الأقل فراشا جديدا هو من حق كل عروس .. وكانت تجوب فى البيت وكل أفراد العائلة تحيط بها وبعبد الوهاب .. أمه .. وأخته المطلقة وأخته الأخرى المطلقة أيضاً .. ونظيرة .. وقد استطاعت بذكائها أن تدفع العائلة على أن تطوف بها بقية الحجرات حتى المطبخ والحمام .. إن فى البيت ثلاثة حمامات ، وقالت روزالين بالإنجليزية وهى تدخل

الحمام القريب من غرفتـيها .. هكذا سيكون لنا .. وردت نظيرة بالإنجليـزية أيضـاً .. هذا مـن حقـك .. ولم يرد أحـد من باقى نســاء العـائلة .. ربما لأنهن لم يفـهمـن الانجليزية .. والـتفـوا جميعـاً بعد ذلك فى غرفة الاستقـبال .. وقالت الأم ضاحكة .. قل لعروستك يا ابنى أننا لا نطبخ الطعام الأمريكانى وعليها أن تدبر أمـرها .. وإذا بروزالين ترد عليـهـا فـوراً وبلغة عـربيـة سليمة .. إنى لم أعد آكل إلا الأكل المصرى .. إنه أطعم وإن كان يزيد فى الوزن .. وفـرحت نساء العـائلة بعـد أن تأكدوا أنهـا تتكلم العربية .. ولكن الجلسة التى كانت تجـمعهن كانت جلسة باردة حـتى أصـبح جمـيع أفـراد العائـلة فى انتظار أن ترحل عنهم روزالين .. وربما أحست روزالين بذلك فقالت فى بساطة كأنها لا تطلب شـيئاً له قيمـة .. إنى فى انتظار أن يعود الحاج عبد الغـفور حتى أتشرف بمعرفتـه .. وسكت كل نساء العائلة وهن يتبـادلن النظرات كأن كلا منهـن تلعن روزالين .. وعادت روزالين تقـول وهى تبتـسم ابتـسامـة صفـراء .. لا يمكن أن أتزوج قبل أن يبارك الحاج عـبد الغفور هذا الزواج .. إنى أعلم أنه يعـود إلى البيت فى الســاعة الثـامنة .. هذا ما عـرفتـه من عـبده .. وقـد جاءت الســاعة الثـامنة .. كان نسـاء العائلة قـد انصرفن عن روزالين ودخلت كل منهن غرفتها ما عدا نظيرة .. إنهـا تجلس بجـانبهـا كـأنها تدرسـهـا .. وأذيع أذان العشـاء ونظرت روزالين إلى عبد الوهاب صامتة فقام عبد الوهاب وهو يقـول لها .. تعـالى .. وشدها إلى غـرفتـها .. وقـالت روزالين لنظيرة وهى تخطو مع عريسهـا .. ألا تصلين العشاء .. وقالت نظيرة ضاحكة .. إن صلاة الـعروس لا تجوز إلا للعرائس وأنا

لست عروساً .. ثم جرت نظيرة تنادى إخوتها وأمها ليتفرجن على الأمريكية المسلمة وهى تصلى .. وكانت تصلى خلف عبد الوهاب لا بجانبه .. هكذا الشرع كما حدده عبد الوهاب ..

وجاء الحاج عبد الغفور وفوجىء هو الآخر عندما وجد روزالين فى البيت .. ولكنه كأى رجل أعمال شاطر أخفى دهشته .. وجلس معها وهو لا يبدى أى رأى فيها .. هكذا رجال الأعمال لا يبدون إعجابهم ولا اعتراضهم إلا بعد أن تنتهى العملية ..

وصاحت نظيرة وهى تحكى :

– لا تتصور كيف استطاعت روزالين أن تثير اهتمام أبى .. إنه بعد دقائق وجد أنها تحدثه فى صميم أعماله .. فى تجارة الحديد والخردة وفى صناعة وإعداد وقص الحديد .. وهى تقول له عن أسماء الشركات الأوروبية والأمريكية التى تستورد الحديد الخردة وعن أسماء الشركات التى تضم آلات إعداد الحديد .. إنها تبدو وكأنها منذ قررت الزواج من عبد الوهاب قد تفرغت لدراسة أسواق ومصانع الحديد .. حتى أن أبى قال مندهشاً .. إنك ست عظيمة تستطيعين أن تقدمى خدمات كثيرة .. والله شاطر يا واد يا عبد الوهاب .. عرفت تختار .. أرينا كيف وماذا ستعمل .. كأن أبى قد قرر أن روزالين ستدفع ابنه إلى العمل معه ..

وكانت نظيرة تتكلم وأنا أستمع وأقود السيارة .. ورغم غرابة ما كنت أسمعه إلا أنى كنت لا أزال أتمنى أن أتحدث مع نظيرة فى الموضوع الآخر .. موضوعنا .. وقد قدت السيارة بطول شارع الهرم .. ثم دخلت بها إلى شارع ترعة

المريوطية .. حتى سقارة .. ثم عدت .. إلى أن قلت لنظيرة :

- لقد تعبت من السواقة .. هل نذهب إلى مقهى أو محل نجلس فيه ..

وقالت ضاحكة :

- أفضل أن نبقى فى السيارة ..

قلت :

- لو وقفنا بالسيارة فسيأتى عسكرى البوليس .. وندفع .. ثم يأتى خفير .. ثم يأتى كل من هب ودب .. وندفع .. وليس المهم أن ندفع ولكننا لن نكون على راحتنا .. اسمعى .. إن عندى مكتباً خاصاً فى وسط البلد .. هل نذهب إلى هناك بدلاً من الشحططة ..

وقالت نظيرة من خلال ضحكتها :

- سمعاً وطاعة ..

ودهشت لسرعة موافقتها .. إنها لا شك قد فهمت أن المكتب الذى أقصده هو شقة خاصة .. جرسونيرة .. إنها ليست عبيطة .. فكيف توافق بهذه السهولة ..

وقد أحسست بموافقتها أنى استكملت كل ما أريده .. سنذهب إلى الشقة وهناك يحدث ما هو مفروض أن يحدث .. إن البنت قبل أن تدخل الشقة تعرف مقدماً ما سيحدث وموافقة مقدماً على ما يحدث .. وبدأت أقود السيارة بسرعة أكبر .. ولكنى كان يجب أن أستمر فى الحديث حتى أثبت حسن نيتى وكأنى لا أنتظر أكثر من استمرار الحديث .. وقلت :

- إن ما يحيرنى فى كل ذلك هو موقف والدك ..

والتفتت إلىّ نظيرة وقالت وشفتاها مضمومتان كأنها فى حالة إصرار :

– إن بابا هو أعقل العقلاء ..

وقلت وأنا أقاوم لهجة ساخرة تكاد تتغلب على لسانى :

– لا شك أنه أعقل العقلاء ما دام قد نجح فى عمله إلى هذا الحد .. ولكن .. كيف يسمح أعقل العقلاء بأن يتزوج ابنه بهذه الطريقة .. وكيف يتركه دون أن يؤثث له شقة خاصة ليتزوج فيها .. بل كيف يترك ابنه يتزوج وهو بلا عمل .. فى حين أنه يستطيع أن يعطيه كل شىء .. ويفرح به ..

وقالت نظيرة فى صوت جاد :

– إنى أعرف كل ما يقال عن أبى .. الناس تقول أنه بخيل رغم أنه يملك الملايين .. بخيل حتى على أولاده .. وهذا ليس صحيحاً .. إن بابا كما حقق النجاح لنفسه يريد النجاح لأولاده .. وقد نجح أبى وهو معتمد على نفسه .. أنت تعلم وكل الناس يعلمون أنه بدأ عاملا فى وكالة البلح .. بدأ وهو لا يجيد القراءة والكتابة .. إلى أن وصل إلى أن أصبح أنجح وأغنى أغنياء وكالة البلح ، وأصبح بدراسته لعمله كأنه نال فيه أرقى الشهادات العالمية .. ولأن هذا هو أبى فقد أراد أن يربينا بأن يعتمد كل منا على نفسه وعلى كفاحه وعلى جهده كما اعتمد هو على نفسه فى تحقيق نجاحه .. كان كل ما قرره هو أن يحمينا من مرحلة طفولته التى عانى فيها الفقر والجهل فوفر لنا حياة لا نحتاج فيها إلى أحد وأدخلنا المدارس حتى لا ينقصنا العلم .. ثم ترك كلاً منا حراً .. وحتى تكون لهذه الحرية قيمتها فلا يعطى لأحد منا ما يغنيه عن العمل إنما فقط

يعطيه ما يغنيه عن الفقر وعن الشحاذة .. وثق أن بابا يعتبر مثلاً أعلى لكل منا .. أخى عبد السلام نشأ وهو يريد أن يعتمد على نفسه كما كان بابا معتمداً على نفسه .. واجتاز عدة محاولات فشل فيها كلها ولكنه ظل مصمماً على أن يعتمد على نفسه .. فلم يطلب رغم فشله أن يعمل مجرد ابن لأبى .. ابن صاحب العمل .. ولكنه سافر إلى أوروبا وعاش هناك وقيل إنه نجح وربما كان كل ما يؤكد لنا نجاحه هو أنه لم يعد فى حاجة إلى بابا ولا يرسل فى طلب أى مبلغ أو أى خدمة ..

وقلت فى هدوء كأنى أواجهها بالواقع المر :

– ولكن أخوك عبد الوهاب لم ينجح ولم يستطع حتى الآن أن يكون شيئاً ..

قالت ولهجة الإصرار ترن فى صوتها :

– إن عبد الوهاب يرفض أيضاً أن يعمل مع أبى لأنه لا يستطيع أن يتخلص من إيمانه بالاعتماد على نفسه .. وقد تقول أن عبد الوهاب يكره أبى لأنه متباعد عنه ولا يجادله فى شىء .. لا .. إنه لا يكرهه .. إنه يعانى عدم القدرة على الوصول إلى ما وصل إليه أبى .. وسيعيش هذه المعاناة إلى أن يصل .. كلنا نعانى هذه العقدة .. حتى أنا .. إنى أحب بابا إلى حد إنى اعتبره معجزة البشرية .. أعظم رجل فى مصر ، وتبلغ عظمته مستوى العالم .. ولذلك أحاول أن أكون شيئاً أنا الأخرى .. لقد دخلت الجامعة لأصل إلى شىء رغم أنى كنت أستطيع أن أكتفى من التعليم وأتزوج كما تزوجت أخواتى البنات .. ولكن أخواتى فيهن طبيعة أمى .. طبيعة المرأة القدرية المستسلمة لقدرها ؛ ولكنى أنا ورثت طبيعة أبى .. لذلك فإنى

أحاول وأصر على المحاولة إلى أن أكون مثله ..

وقلت وأنا أحاول أن أرضيها :

– إن الناس لا تفهم كل ذلك ..

وقالت بحدة :

– لأن الناس لا تفهم أسرار النجاح .. لا يفهمون كيف نجح أبى .. لو كان أبى ابن باشا وورث عن أبيه الملايين فربما كان قد تركنا نمرح فى هذه الملايين .. لأنه لم يتعب فيها ولا يريد أولاده أن يتعبوا .. ولكن لأنه صنع هذه الملايين بنفسه فهو يريد من أولاده أن يصنعوا مثله .. وأن يعملوا مثله .. ثم لا شك أن أبى يعلم أن كل ما يملكه اليوم سنرثه عنه غدا .. ولكنه لا يعطينا اليوم ما سيكون لنا غدا .. لأنه يريد أن يربينا على الكفاح والعمل .. وأكثر من ذلك .. إن أبى كتب ملكية كل العمارات التى اشتراها وكل الأراضى الزراعية بأسمائنا .. أنا أملك عمارة باسمى وأختى تملك عمارة وأخى عمارة .. و .. و .. كل شىء اشتراه بأسمائنا ورغم ذلك فالناس تعلم أننا ليس لنا حق إدارة ما نملكه .. ليس لنا الحق فى مليم واحد مما تدره هذه العمارات والأراضى لأن أبى يتولى إدارة كل شىء ويضع يده على كل شىء .. ورغم ذلك فقد كنا نستطيع أن نستولى على إدارة هذه الأملاك .. أن صغرى بناته أى أنا بلغت سن الرشد وتستطيع أن تطالب بحقها ، بل إننا نستطيع أن نجتمع كلنا ونرفع قضية واحدة نستولى بها على كل أملاك بابا .. ولكننا لا نفعل .. لماذا .. لأننا فى دخيلة أنفسنا مقتنعون بأنه على حق .. وبأنه يدير العائلة كلها بأسلوب مثالى .. ولأننا رغم كل ما يقوله الناس نحبه إلى حد الاستسلام له ..

قلت وأنا أوقف السيارة أمام العمارة التى تضم الشقة :

- إن الشيء الوحيد الذى لا نختلف فيه هو أن بابا معجزة .. كمعجزة روتشلد وفورد وروكفلر ..

وربما قلت هذه الكلمات لمجرد أن أرضى نظيرة قبل أن تدخل الشقة .. وهى لم ترد علىّ .. ولكنها بسرعة عادت إلى طبيعتها المرحة .. وركبت معى المصعد فى حالة طبيعية كأنها ليست مقبلة على شيء جديد مثير .. ودخلت الشقة ببساطة .. إنها شقة صغيرة .. غرفة نوم وغرفة مكتب وصالة واسعة .. ودخلت نظيرة تطوف بالحجرات دون أن أدعوها .. ثم وقفت تسألنى ضاحكة :

- منذ متى ؟

قلت وأنا أردد ضحكتها :

- منذ أكثر من عشر سنوات .. إنها شقة قديمة .. إيجارها عشرة جنيهات فقط ..

قالت وهى تنظر إلىّ كأنها تكتشفنى :

- إنها رخيصة .. لعلها شهدت أياماً غالية ..

قلت وأنا أقترب منها :

- إن كل ما فيها ذكريات .. وأتمنى أن أعيش فيها واقعاً لا ينتهى أبداً ..

قالت وهى تبتعد عنى :

يبدو أنها لا تحتمل الواقع فتحيله إلى ذكريات ..

وقلت وكأنى أجرى وراءها :

- إنها لم تشهد القوة التى تحيلها إلى واقع .. وأتمنى أن أكون قد وجدت هذه القوة ..

وأمسكت بكفيها بين يدى وقلت مبتسماً :

– لم أسمع لك اسماً يدللونك به ..

وقالت وهى تشد كفيها من بين يدى :

– إنى أرفض أى اسم آخر .. البعض حاول أن يسميني نيني أو ريرى .. ولكن أرفض .. إنى دائماً نظيرة .. نظيرة عبد الغفور البرعى .. إياك أن تطلق علىّ اسماً آخر .. لا نيني ولا ريرى .. أنا فخورة باسم نظيرة .. إنه اسم يحفظ شخصيتى بين كل البنات ..

ومددت ذراعى وأمسكت بها وأنا أضغط عليها كأنى أشعرها بقوتى وقلت هامساً :

– نظيرة .. هل تعلمين ..

قالت وهى ترخى عينيها عنى :

– أعلم ..

قلت وأنا أقرب وجهى من وجهها وشفتاى تطلان على شفتيها :

– هل أستطيع ؟

قالت من خلال ابتسامة هادئة :

– لا .. لا تستطيع ..

قلت فى رجاء :

– لماذا .. يجب أن نصل ..

قالت وهى تبتعد عنى مرة أخرى :

– ليس قبل أن أقرر .. إن قوتك حتى الآن أقنعتنى بأن أحادثك فى التليفون ولم تقنعنى بعد بأكثر من ذلك ..

قلت وأنا أزفر أنفاسى يائساً :

- أخشى أن تمر أيام أخرى دون أن نلتقى وقد أفقد فيها كل قوتى نحوك .. قوة إحساسى الذى يربطنى بك وقوة إحساسك الذى أتمنى أن يصل إلىّ ..

وقالت نظيرة وهى تلف على قدميها فى أنحاء الصالة كأنها ترقص :

- اسمع .. إنى سأخرج من الجامعة كل يوم وآتى إلى هنا لأذاكر .. سيكون هذا مكتبى .. هل توافق ..

وقلت فى فرحة لم أستطع أن أسيطر عليها وأخفيها :

- إنى سأحقق بذلك شيئاً واحداً ..

قالت ضاحكة :

- ما هو ..

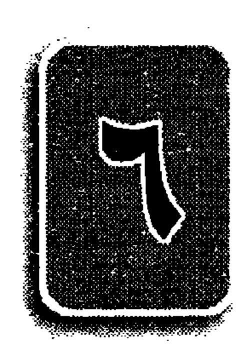
قلت دون أن أتعمد الاقتراب منها :

- إنى سأطمئن على أنى فى كل يوم سأرى ضفيرتك .. إنك لا تعلمين أنها أغلى ما فيك ..

قالت وهى تفتح الباب وتخرج :

- سأنتظر إلى أن تكتشف ما هو أغلى فىّ من ضفيرتى مهما طال انتظارى .. وانتظارك .. تعال .. خذنى إلى البيت .. يجب أن أعود ..





من يومها بدأت حياتى تتغير كأنى أولد من جديد .

بدأت نظيرة تعيش معى كل يوم .. وإنى أذكر اليوم الأول .. كانت قد اتفقت معى على أن تخرج من الجامعة الأمريكية فى الساعة الثالثة أو الرابعة وتأتى إلى شقتى الخاصة مباشرة .. لم يكن اتفاقاً ولكنه قرار اتخذته هى وأعلنتنى به دون أن تحس حاجتها إلى موافقتى .. كأنها واثقة من أنى طبعاً موافق .. ومن ساعتها وأنا أعيش كل إحساسى فى انتظارها .. وتعمدت أن أترك مكتبى فى الشركة الهندسية فى الساعة الواحدة وأذهب إلى الشقة وأبقى كل هذه المدة وحدى فى انتظارها وأنا أحاول أن أقنع نفسى بأن الشقة فى حاجة إلى تنظيف وإعداد قبل وصولها .. ولكنى لم أنظف ولم أعد شيئا ، ولكنى جلست ساهماً مع أفكارى وخيالى وتصوراتى .. ماذا سأفعل معها وبها بعد أن تأتى .. لا يمكن أن تكون ستأتى لنجلس ونتذاكر كما قالت لى .. إنه مجرد كلام .. وكل فتاة

تقـول أى كلام تغطى به نفـسهـا وهى فى طريقهـا إلى شـقة الشاب .. لا شك أنى سأصل إلى كل شىء .. سيحدث بيننا كل شىء .. لقد قالت لى إن إحـساسها بقوتى .. أى بقوة حـاجتها إلىّ .. دفـعهـا إلى أن حـادثتنى فى التليـفون .. وأدى حـديث التليفون إلى اللقاء .. وأدى اللقاء إلى أن دخلت أمس إلى شقتى الخاصة .. ولكنهـا لم تعط أكثر . إن إحسـاسها بقوة حاجـتها إلىّ لم يدفعها إلى أكثر من ذلك .. ولكنه دفعها إلى أن تقرر أن تأتى إلىّ كل يوم لتـذاكر .. أى أن إحـسـاسـهـا دفـعهـا إلى أن تعطى أكثـر وتأخذ أكثر .. وهى لن تعطى ولن تـأخذ لمجرد أن تذاكر دروسها وهى جالسة بجانبى ..

وهام بى خيالـى حتى وجدت نفسى أقوم إلـى غرفة النوم وأحاول أن أعيـد إعداد كل ما فيها ، ووجـدت نفسى أقف أمام الفراش طويلا كـأنى أستعيـد آخر ذكرياتى ثم وجـدت نفسى أنزع عنه الملاءة والغـطاء وأخـرج من الدولاب مـلاءة نظيـفـة وغطاء آخـر بل إنى أعدت كـساء المخـدات .. كل شىء يجب أن يكون نظيفاً .. إنى أبدأ كل شىء من جديد ..

وفتحت لها الباب فى الساعة الثالثة والنصف ..

واستقبلت سمرتها الخفيفة .. وضفيرتها الرائعة المدلاة فوق صدرها الذى يشـبه نهـدة حلوة من تنهدات مـلاك من ملائكة النعيم .. وشفـتاها المكتنزتان اللتان تحملان دعوة صـامتة فى صمتها ضجيج .. وقوامها الرائع داخل ثوبها المحتشم وإن كان يكشف عن ذراعيها .. قوام بنت البلد .. وقوام بنت البلد يختلف عن قـوام البنت المودرن حتى لو اتـفق معـه فى خطوطه .. إنه قوام يحمل معنى خاصاً ..

ودخلت بلا تكلف وبلا تردد وهى تقول دون أن تمد يدها لتصافحنى :

- أهلا ..

وقلت وأنا أغلق الباب وراءها وأتبعها وهى تخطو فى جرأة داخل الشقة وكأنى أجر وراءها :

- لقد انتظرت طويلا ..

وقالت ضاحكة :

- ستتعود على مواعيد الجامعة الأمريكية ..

وتعمدت أن أجلس على مقعدى فى الصالة قبل أن أدعوها للجلوس كأنى أنا الآخر أتعمد رفع الكلفة بيننا ، ولكنها صاحت فوراً :

- لا.. لن نجلس هنا .. فى غرفة المكتب .. إن معى تلالاً من العمل .. تصور أنى يجب أن أعيد كتابة بحث كامل عن التفسير الاقتصادى للإنتاج الزراعى ..

كانت تتكلم وهى تدخل غرفة المكتب كأنها صاحبة البيت تتحرك فيه كما تشاء .. وقمت أجرى وراءها .. وألقت حقيبة كتبها ثم أطلت فوق المكتب فى لفتة سريعة ثم بلا أى تعليق شدت فوطة صفراء كانت ملقاة على الأرض وأخذت تمسح بها سطح المكتب فى حركة سريعة .. إن المكتب فى حاجة فعلا إلى تنظيف .. ليس لى ذكريات قريبة فى غرفة المكتب .. ولكنها تمسح المكتب بلا أى كلمة كأنها هى المسئولة عن نظافة هذا المكتب ولست أنا .. ثم جلست على المقعد وهى لا تكف عن الكلام عن أحداث الجامعة .. وبدأت تفتح حقيبتها وتخرج الكتب والأوراق وتعدها أمامها .. كأنها فعلاً ستبدأ فى

المذاكرة .. ولم أصدق .. واقتربت منها ومددت يدى أغلق الكتب التى أمامها وقلت وأنا أحاول أن أقترب أكثر :

– لن تكون هناك مذاكرة للأبحاث الدراسية اليوم .. اليوم نحن فى حاجة إلى أن أذاكرك وتذاكرينى .. أن أدرسك وتدرسينى ..

ومددت يدى أكثر أمسح على شعرها ..

وابتعدت عنى فى رفق وقالت وابتسامتها الحلوة تقطر من بين شفتيها المكتنزتين :

– حسين .. من أجل خاطرى .. لا تبدأ شيئاً قبل أن أبدأ أنا ..

قلت فى دهشة :

– ماذا تقصدين ..

قالت من خلال ابتسامتها :

– إنى أريد أن أكون معك على طبيعتى لا على طبيعة الظروف التى تجمعنا .. أنا معك الآن وحدك ولكن ليس معنى هذا أن نبدأ لمجرد أننا وحدنا .. أريد أن أحس بالسعادة معك حتى دون أن نبدأ .. وإلى أن تدفعنا طبيعتنا إلى أن نبدأ .. وطبيعتى الآن تدفعنى إلى التفرغ للمذاكرة مع سعادتى بأنى بجانبك ..

ووجدت نفسى أبتعد عنها كأنى أريد أن أثبت بأنى من القوة بحيث لا أحتاج لأن أبدأ قبل أن تحتاج هى .. وقلت فى غيظ :

– أنت تذاكرين .. ماذا أفعل أنا .. إنى لم أحسب حساب هذا اليوم فانتهيت من المذاكرة منذ عشر سنوات .

وضحكت ضحكتها المنغمة كأنها عزف سيمفونى وقالت :

– تستطيع أن تقرأ .. أو تستطيع أن تنام إذا كنت من هواة النوم بعد الظهر ..

وقلت وأنا أروح وأجيء أمامها فى عصبية :

– إنى لا أنام بعد الظهر إلا إذا تناولت غداء دسماً وأنا لم أتغد حتى الآن ولا أعتقد أن فى البيت شيئاً يؤكل .. إلا أنت ..

وقالت من خلال ضحكتها :

– سأعاقبك لأنك نسيت الغداء وعقابى هو أنى لن أدعك تأكلنى .. إنى تناولت ساندويتش فى الجامعة قبل أن آتى إليك وإنى رحمة بك سأتركك تنزل إلى الشارع وتشترى شيئاً تأكله وأبقى أنا وأذاكر وحدى وإن كنت لم أعد أتصور أنى أستطيع أن أذاكر وأنا وحدى ..

وقلت بسرعة :

– لا .. سأعاقب نفسى .. ذاكرى .. وعن إذنك ..

واقتربت من المكتب وبدأت أفتح أدراجه المتربة .. لقد خطر على بالى فجأة أنى منذ سنوات كنت أحاول أن أقوم بمشروعات ثم أعود وأهملها مكتفياً بعملى فى الشركة .. لقد خطر على بالى أن أراجع هذه الأوراق .. وأخرجتها من الأدراج وأخذت أزيل عنها التراب ثم حملت مقعداً وضعته على حافة المكتب بجانب نظيرة وبدأت أعمل .. ونظيرة سعيدة .. تذاكر .. ثم نتعب فترة فنتحدث عن الجامعة الأمريكية أو عن الشركة التى أعمل بها .. أو عن ذكرياتى وذكرياتها .. وأهلى وأهلها .. أو عن أخيها عبد الوهاب وزواجه من روزالين .. وقد سألتها ضاحكاً عندما جاء ذكر أخيها :

– هل دفع المهر بالدولار أم بالجنيه المصرى ؟!

وقالت جادة :

– هل تعرف أنه اتفق مع روزالين على ألا يدفع شيئاً .. لا مهر ولا شبكة ولا شىء لله ..

وقلت فى دهشة :

– وهل قبلت روزالين ؟

وقالت نظيرة فى بساطة :

– لقد قال لروزالين بصراحة أنه لا يستطيع أن يدفع إلا إذا طلب من أبيه لأن نصيبه الذى يتقاضاه حتى اليوم لا يتجاوز مائة جنيه فى الشهر .. وهو لا يصلح ليكون مهراً ولا يكفى لشراء شبكة .. وهو فى الوقت نفسه لا يريد أن يأخذ من أبيه ..

وقلت مقاطعاً :

– المفروض أن يدفع أبوك دون أن يطالبه عبد الوهاب ..

وقالت بسرعة وحماس :

– لا .. إن بابا وضع نظماً أعتبرها فى منتهى الرقى .. إنه مسئول عن ولديه ليكفل لهما الحياة إلى أن يدبر كل منهما حياته ويستغنى عنه .. مسئول عنهما إلى أن يتما تعليمهما وإلى أن يعملا ويكسبا .. ولكنه ليس مسئولا عن المطالب الخاصة لكل منهما .. إن كلاً منهما عليه أن يسعى ويكافح إلى أن يحقق لنفسه مطالبه الخاصة .. فهو لم يشتر لأحد منهم سيارة لأنه يعتبر السيارة مطلباً خاصاً يجب أن ينتظر كل منهما إلى أن يستطيع شراءها .. وطبعاً هناك سيارة للعائلة كلها ولكن لا أحد منا يستعملها كاننا نريد أن نقول لبابا إننا

لسنا فى حاجة إليها .. وكذلك إذا أراد أحد الولدين أن يتزوج فعليه أن ينتظر حتى يستطيع أن يدفع مصاريف ومطالب الزواج والحياة الزوجية ، وهذا طبعاً بخلاف ظروف البنات .. ودعنا الآن من الكلام .. لنعد إلى المذاكرة .. واحد .. اتنين .. تلاته .. إلى المذاكرة ..

وقلت متوسلاً :

– ثانيه واحدة من فضلك .. كيف وافقت روزالين على أن تتزوج بلا مهر ..

وقالت بسرعة :

– قلت لك إنها ليست طبيعية وإن كنت أحس بأن فى رأسها مشروعات كثيرة لهذا الزواج ..

وعادت إلى المذاكرة وعدت إلى مراجعة مشروعاتى وقد كنا نتعمد فعلا ألا يأخذ منا الحديث إلا دقائق نعود بعدها إلى العمل .. وكنت قد اندمجت فى هذا الإطار وبدأت أحس فعلا بالسعادة .. سعادة من نوع جديد .. إلى أن أصبحت الساعة السادسة وبدأت نظيرة تجمع أوراقها وكتبها قائلة فى مرح :

– المفروض أنى أستطيع أن أبقى حتى الساعة الثامنة .. ليس مسموحاً أن أبقى خارج بيت العائلة إلى ما بعد الساعة التاسعة .. تقاليد .. عائلة محافظة .. ولكنى أحس الآن بالتعب ربما لأنى أذاكر وأحاسيسى تلعب فى ملعب جديد .. وسامحنى اليوم .. يجب أن أذهب ..

وقامت واقفة تحمل حقيبتها ووقفت أمامها وقد تعلقت عيناى بضفيرتها .. لا يمكن أن ينتهى اليوم بلا شىء حتى مجرد لمسة لضفيرتها التى يتجمع فيها كل ضعفى .. وقالت

نظيرة ضاحكة وكأنها اكتشفت ما يدور فى إحساسى ..
وقالت :

– لا تبدأ .. إنى لم أبدأ ..

ثم فتحت الباب وسبقتنى خارجة ولحقت بها .. وركبت بجانبى فى السيارة وأوصلتها إلى باب العمارة ونحن لا نكف عن الحديث ..

وقلت وهى تفتح باب السيارة لتنزل :

– غداً ..

وقالت وهى تقفز من السيارة :

– طبعاً ..

وفى الغد طفت بمحال البقالة لأشترى للشقة خزيناً من المأكولات .. اشتريت عدة أصناف من الجبن ، واشتريت أصنافاً من اللحم المحفوظ ، وعدداً من البيضات لعلها تحب البيض ، واشتريت علبة من الفول المدمس المحفوظ .. إنى أحب الفول المدمس ولا أستطيع الاستغناء عنه ..واشتريت أنواعا من علب التونة والسردين .. ولم أنس أن أشترى البن لزوم القهوة .. اشتريت كثيراً .. ولم أكن أنتقى ما أشتريه تحت تأثير صورة نظيرة أمامى كبنت بلد وأتعمد أن أنتقى المأكولات البلدى .. لا .. إن نظيرة ليست بنت بلد إلا عندما أنظر إليها كامرأة ولكنها فى تقديرى أحس بها كفتاة راقية طالبة فى الجامعة الأمريكية ، ابنة مليونير لذلك كنت أتعمد أن أشترى أرقى المأكولات المستوردة .. ولعلنى كنت أيضاً أريد إقناعها بأنى رجل كريم لا يبخل عليها ولا على نفسه .. لست بخيلاً كأبيها .. لذلك كنت أتعمد أن أشترى الغالى .. وحملت كل هذه

المشتريات فى كيسين ثقيلين منتفخين .. وذهبت إلى الشقة ودخلت تواً إلى المطبخ .. وأخذت أنظف فى الأرض وفى الصحون . ثم اطمأننت إلى الثلاجة .. إنى بالأمس كنت قد نسيت أن أدير الثلاجة وبقينا أنا ونظيرة نشرب الماء العادى ولعلنا لم نشرب .. ولكن الثلاجة الآن جاهزة .. وجمعت فيها ما اشتريته وأنا أرتبها كأن من طبيعتى أن أحتفظ بالثلاجة دائماً وهى زاخرة بما فيها .. لقد قضيت ساعات وأنا أعد كل شىء لاستقبالها .. إلى أن جاءت فى الساعة الثالثة والنصف كموعد الأمس وفوجئت بها تحمل مع حقيبتها الدراسية قرطاساً كبيراً ثقيلاً .. وقلت :

– ما هذا ؟

قالت فى بساطة ست البيت وهى تخطو بسرعة نحو المطبخ :

– خشيت أن تكون قد نسيت أن تتناول غداءك اليوم أيضاً فأشفقت عليك ..

وقلت وأنا أجرى وراءها إلى المطبخ :

– إنى لم أتناول غدائى ولكنى أعددت كل شىء ..

ووضعت القرطاس الذى تحمله ووقفت تتفرج على ما فى الثلاجة التى كنت قد فتحتها كأنى أقدم لها هدية .. وقالت كأنها فرحت بالهدية :

– هذا كثير .. اسمع .. سأطهو لك غداءك حتى تطمئن على مستقبلك .. إنى طباخة ماهرة وستشهد لى .. ماذا تريد أن تأكل من كل هذا ..

وأخذنا نحن الاثنين ننظر ونقلب فيما اشتريته ونحن نتضاحك إلى أن قلت :

- لو أردت الحق فإني اشتريت كل هذا لأنى لا أعلم ماذا تحبين .. أما أنا فأحب الفول المدمس ..

قالت من خلال ضحكتها :

- سأعد لك طبق فول بالبيض .. وسأعد بجانبه طبقاً من لحم اللنشن والسوسيس وبجانبه جبن ركفور .. فإنى أحب اللنشن والركفور ..

وشدت علبة الفول المدمس المحفوظ وناولتها لى قائلة كأنها تأمرنى :

- افتح هذه ..

ثم أخذت تعد الطبق وتخرج لفافة الزبد التى اشتريتها وتصل إلى كل ما تحتاج إليه دون أن تسألنى شيئاً ، وتظل تبحث فى رفوف المطبخ وأدراجه حتى تجد ما تريد .. لعلها تتعمد دائماً ألا تبدو غريبة عن البيت .. إنها ست البيت وتعرف كل شىء فيه .. وكنت قد فتحت علبة الفول وأخذتها نظيرة منى وبدأت تعد فيها ثم قطعت الزبد ووضعته فى الطبق ، ووضعت الطبق على البوتاجاز وهمت أن تشعل من تحته النار .. إن البوتاجاز لا يشتعل .. إن الأنبوبة فارغة حتى نهايتها ..

وغرقنا فى الضحك وقالت :

- لعله ليس من حقك بعد أن أطهو لك ..

وفتحت القرطاس الذى جاءت به .. إنه مزدحم بقطع الساندوتش .. وزجاجة كوكاكولا .. وقراطيس الشاى .. وفاكهة .. تفاحتين وبرتقالتين .. وأخذنا نأكل فى مرح .. لا نريد أن نكف عن الأكل .. لن نشبع أبدا .. ثم لم نكن

نستطيع أن نشرب شاياً أو قهوة لفراغ البوتاجاز .. وشملنى صمت هادىء وأنا أنظر إليها بكل عينى .. هل نبدأ .. وهى صامتة أيضاً وعلى شفتيها ابتسامة تقول لى .. لا .. لن نبدأ .. وقلت لها كأنى أتوسل :

– لقد أكلت كثيراً وأستطيع أن أنام ..

كنت كأنى أدعوها للنوم معى ..

ولكنها قالت من خلال ابتسامتها وهى تبتعد عنى :

– سأبدأ المذاكرة .. لقد ضحينا بالعلم فى سبيل الأكل ..

وسرت وراءها منهاراً يائساً وقلت كأنى أسخط على الدنيا :

– لن أنام .. سأذاكر أنا أيضاً ..

والتففنا حول المكتب .. وبعد دقائق كنت كأنى نسيت حرمانى منها وانشغلت فعلا فى العمل بينما هى تذاكر .. إنى أحس بحماس شديد لإعادة بحث مشروعاتى الخاصة التى كنت قد أهملتها .. وكنا ننقطع عن العمل دقائق لنتحدث ونضحك ثم نعود ونعمل ..

وبقيت معى يومها حتى الساعة الثامنة ، وقبل أن تخرج دخلت المطبخ وأخذت تعيد تنظيم كل شىء وتغسل الصحون والشوك والسكاكين وقالت ضاحكة وأنا بعيد عنها فى غرفة المكتب :

– كيف ستغير أنبوبة البوتاجاز ..

وقلت فى بساطة كأنها ليست غريبة عنى :

– سأقول للبواب ..

وانتهت من المطبخ وعادت إلىّ وقلت لها وأنا أجد نفسى ملتصقاً بها دون تعمد :

– إنك تنسين دائماً مفتاح الشقة ..

ثم أمسكت بكفهـا ووضعت فيه مفتـاح الشـقة واستطردت قائلا :

– حتى لا تنتظريني ولا أنتظرك .. إننا فى بيتنا ..

وفتحت كفـها ونظرت إلى المفتاح من خلال ابتسـامة فرحة كـأنها تنـظر إلى دبلة الخطوبة ، ثم مـالت علىّ وقـبلتنى على خدى قبلة سريعة ، ودون أن تقول شيئاً شدت حقيبتها وجرت بهـا إلى البـاب ، وأنا أجرى وراءها هـائماً فى سـعـادتى رغم حرمانى ..

ولم يكن قـد بقى إلا يومـان على يوم كـتب كتـاب أخـيهـا عبد الوهاب وروزالين .. يوم الخميس .. وفوجئت بعبد الوهاب يتصل بى فى تليفون الشركة التى أعمل بها .. إنه لم يتصل بى أبداً من قبل .. لقد تعودنا أن نلتـقى صدفة فى الشارع .. حتى أنه إذا أراد أحـد منا أن يلتـقى بالآخر يكتـفى بالبـحث عنه فى الشارع .. كـيف اتصل بى فى التليفون وكيف عـرف النمرة ..

وقال عبد الوهاب يقطع دهشتى بصوته الهادىء الخجول :

– إن العقد سيتم بإذن الله بعد غد ..

وقلت ضاحكاً :

– أعرف .. مبروك مقدماً ..

وقال متردداً :

– هل تقبل أن تكون شاهدا ؟!

قلت فى مرح :

– يشرفنى .. من لى أعز منك ..

قال كأنه فرح :

– هل نذهب مـعـاً وأمـر عليك فى النادى .. سـتكون مـعى أختى نظيرة ..

قلت بسرعة :

- لا .. ليس فى النادى .. سأمر عليك أمام باب العمارة ..

وقال عبده بعد أن تردد قليلا :

- فى الساعة الخامسة إلا ربع .. أو لتكن الرابعة والنصف ..

وقلت فى وقار :

- اتفقنا ..

وقد أحسست ساعتها أنى لم أرد أن نتقابل فى النادى لأنى لم أكن أريد أن تدخل نظيرة النادى .. لماذا .. ربما لأن حبى لنظيرة وصل إلى الحد الذى يصل إليه كل حب .. حد حرمانها من دخول نادى الجزيرة ..

وقالت لى نظيرة عندما التقينا يومها أن أخاها قال لها إنه يريد أن يتصل بى ويخشى ألا يلتقى بى فى الشارع كما تعود .. فقالت له أن يتصل بى بالتليفون .. وقال لها إنه لا يعرف لى رقماً من أرقام التليفون .. فسألته بذكائها .. أين يعمل .. وقال لها إنى أعمل فى الشركة الهندسية .. فقالت إنها ستبحث له عن رقم تليفونى .. وتركته ودخلت .. طبعاً لم تبحث فى دفتر التليفون ولكنها عادت وقالت له عن الرقم الذى تعرفه والذى تحادثنى به كل يوم ..

وجاء يوم الخميس .. ومررت بسيارتى على باب العمارة حيث كان ينتظرنى عبد الوهاب وبجانبه نظيرة .. وقد أخطأت نظيرة وهمت أن تركب بجانبى كما تعودت ولكنها تنبهت بسرعة وفتحت الباب الخلفى وتركت أخاها عبده يركب بجانبى .. وقد سألته فوراً :

أن جاء المأذون .. ولم يكن المأذون يستطيع أن يعقد قراناً بين مصرى وسيدة أجنبية فالعقد فى هذه الحالة يتم فى مكتب الشهر العقارى .. ولكن عبد الوهاب صمم على أن يقوم مأذون بكتابة العقد حتى يحتفظ بالمظاهر الشرعية .. ويكفى أن زوجته مسلمة حتى لو كانت أجنبية .. أما الشهر العقارى فسيذهبان إليه بعد أيام ليعيدا تسجيل زواجهما مراضاة للرسميات التى تفرضها الحكومة .. وأتم المأذون إجراءات العقد والإحساس بالشرعية يطغى على كل كلمة يقولها عبد الوهاب وتقولها روزالين .. إن كل ما يحسان به هو الشرعية .. ووقعت أنا كشاهد ثم وقع مؤنس زوج فوزية كشاهد آخر .. .. وأحسست أن كل شىء قد انتهى . وقلت للعريس عبد الوهاب :

– هل ستأتيان معى لأحملكما إلى البيت .. بيت العريس والعروسة ..

ولاحظت أن روزالين نظرت إلى فوزية كأنها تسألها أو لعلها كانت تستغيث بها .. وقالت فوزية ضاحكة ضحكة مفتعلة :

– لا.. أنا سأوصلهما إلى البيت .. لا تنس أنى أم العروس ..

وقلت ضاحكاً :

– أختها ..

وقالت فوزية من خلال ابتسامة كأنها رثاء :

– إنى أمها وأختها وأحيانا أكون ابنتها أيضاً ..

وقلت واقفاً وأنا أتقدم إلى العريس والعروس :

– إذن أستأذن .. واعملا حسابكما أنكما مدعوان يوماً إلى العشاء .. فى شهر العسل لا بعده ..

وسمعت نظيرة تقول كأنها تقبض عليّ :
- خذني معك ..
ونظر إليهـا أخوها عبد الوهاب دهشاً .. إنـه دائماً لا يقر أن تكون نظيرة معي وحدها .. ولكنه لم يتكلم ..
وخرجت أنا ونظيرة ..
وقلت لهـا وهي بجـانبي في السيـارة وقـد بدأت أتكلم في لهجة جادة كأني قررت أن أواجه المشكلة :
- إننا لم نصل بعد إلى الساعة التاسعة .. نستطيع أن نبقى معا قليلا ..
قالت ضاحكة :
- إني أسـتطيع أن أسـتـغـل زواج عـبـده وأدعي أني كنت سهرانة في الفرح وأبقى معك طويلا ..
وقلت دون أن أبدي فرحتي :
- إني أريد أن أذهب إلى البيت .. بيتنا ..
قالت من خلال ابتسامتها :
- وأنا أيضاً .. وأعدك ألا أذاكر ..
وأخذت أقـود السيارة وأنا صـامت وهي أيضاً قد صـمتت كـأنها أحـست بأني سـأثيـر مـشكلة ولكنهـا ظلت محـتـفظة بابتسامتها التي أحبها ..
ووقفنا أمام باب الشقة وقلت لها بلا ابتسام :
- افتحي ..
كنت أريد أن أشـعرها أكثـر بأنها تدخل بيـتهـا .. واتسعت ابتسـامتـها وزغردت يـدها بفرحة وهي تمدهـا إلى حقيـبتـها وتخرج المفتاح وتفتح الباب ..

وسبقتها داخلا إلى أن تخرج مفتاحها من قفل الباب وجلست فوراً على المقعد فى الصالة ولحقت بى وجلست على المقعد المقابل وهى تنظر إلىّ كأنها تتعجلنى لأقول سرى .. وقلت لها وأنا أنظر إليها بكل عينى :

– نظيرة .. لقد قررت أن أتزوج ..

وانكمشت ابتسامتها وقالت فى دهشة :

– تتزوج من ؟

قلت كأنى ألومها :

– طبعاً أتزوجك ..

وأرخت عينيها وقالت كأنها تتنهد فى ضيق :

– أنا لن أتزوج ..

قلت فى صوت عادى كأنى أنهرها :

– تقصدين إلى أن تنتهى من الجامعة ..

قالت كأنها تتنهد نهدة أخرى :

– ربما لن أتزوج أبداً ..

قلت فى صوت مرتفع :

– إنى أتكلم جادا ..

قالت فى هدوء وقد عادت ترخى عينيها :

– وأنا أيضا أتكلم جادة ..

وارتفع صوتى كأنى أصرخ :

– ما هذا الجنون .. كيف ترفض بنت الزواج من حبيبها .. أنا واثق ومتأكد من حبك .. فلماذا لا نتزوج .. لماذا ؟

وقالت ورأسها يسقط فوق صدرها كأنها تستسلم لمصيبة :

– لأنى ابنة عبد الغفور البرعى ..

قلت فى دهشة :

– وماذا فى ابنة عبد الغفور البرعى أو فى الحاج عبد الغفور نفسه ؟

وقالت وهى تبتسم ابتسامة ضيقة كأنها ترثى بها نفسها :

– إن بناته معقدات من الزواج ..

وصحت وأنا أتعجلها حتى نصل إلى نتيجة :

– ما الذى يجعلكن معقدات .. إنه أب تفخرن به ويفخر به أولاده ..

وسكتت برهة كأنها تعد محاضرة ستلقيها ثم رفعت رأسها إلىّ واعتدلت فى جلستها وقالت فى صوت خفيض كأنها تحادث نفسها :

– إن بابا مليونير .. وهو مليونير صنع نفسه .. أى أنه لا شىء إلا أنه مليونير .. ليس واحدا من مجتمع المليونيرات .. وليس من عائلة كبيرة .. وليس له نفوذ أو منصب حكومى .. وجاهل لا يجيد القراءة والكتابة ولا يتكلم إلا فى عمله .. وكل من يتقدم إليه من الغرباء عنه يتقدم إلى المليونير المشهور .. صاحب الفلوس .. وكل من يفكر فى الزواج من إحدى بناته يكون فكره محصورا فى الزواج من ابنة الرجل الغنى وعلى طمع فى أن يحقق له هذا الرجل الغنى حياة كلها فلوس .. إن أختى الكبيرة سنية تقدم لها شاب خريج كلية الحقوق ويعمل فى وظيفة محترمة فى الحكومة ومن عائلة كبيرة معروفة .. أبوه كان وزيرا .. ثم إنه هو نفسه شاب رائع وسيم يفتح النفس .. ورحبت به سنية .. أعجبها إلى حد الإصرار عليه .. ووافق بابا اعتماداً على الحسابات التى أجراها عقله .. ثم كانت

أول أزمة عندما فوجيء الشاب بأن عليه أن يبحث عن شقة .. كيف يبحث عن شقة وحماه يملك أربع عمارات فى الزمالك بينها عمارة باسم خطيبته .. لا يمكن .. ولكن بابا أصر .. إن الشقة تدخل فى مسئولية الزوج .. الرجل .. ثم إنه يجب أن يثبت أنه قادر على أن يكون رجلا .. وكثر الكلام حتى كادت الزيجة أن تفشل .. وأختى سنية تريد هذا الشاب وتبكى .. لقد استطاع أن يقنعها بنفسه إلى أن أحبته .. وتدخلت أمى .. وبذلت كل ما تستطيع بأسلوبها الذى تربت عليه مع أبى إلى أن أقنعته بأن يتولى هو تخصيص الشقة .. هل تدرى ماذا فعل .. إنه لم يترك لهما شقة فى إحدى العمارات التى نملكها ولكنه اشترى شقة فى عمارة لا يملكها ولم يكتب الشقة باسم العريس ولا باسم العروسة ولكنه كتبها باسم أخى عبد السلام الذى يقيم فى انجلترا .. وتم الزواج رغم قرف العريس ، بل إنه استسلم لرأى أبى فى ألا يقيم فرحاً كبيراً وأن يكون زفافاً عائلياً فى البيت .. وأصبح أبى بعد ذلك يدفع لأختى سنية مائة جنيه فى الشهر .. ولا مليم زيادة .. لم يكن بخيلا على عكس ما يقوله الناس ولكنه كان عاقلا .. إنه يدفع لابنته مساعدة رمزية وعلى زوجها أن يثبت أنه رجل يستطيع أن يتحمل مسئولية عائلته وعلى زوجته أن تتحمله مهما قل دخله .. هذا هو الزواج .. وأبى نفسه تزوج وهو لا يربح سوى القروش وتحملته زوجته إلى أن أصبح مليونيرا .. ولكن زوج أختى سنية لم يستطع أن يثبت أنه رجل .. وصدم فى أطماعه التى اعتمد عليها فى زواجه .. فطلق أختى بعد عام واحد .. هو الذى طلقها ورماها لتتعذب وسط ملايين أبى .. وكان أبى مطمئناً

إلى أن هذا الزوج لن يخرج منه بشيء .. فقد ترك الشقة وأسرع أبى بتأجيرها .. وهو لا يمكن أن يوافق على عودته كزوج لابنته لأنه لم يثبت أنه رجل يستحق إعجاب أبى وزهوه به ..

وتنهدت نظيرة وأنا ساكت أحس كأنى فوجئت بواقع جديد .. ثم عادت نظيرة تقول وبين شفتيها ابتسامة مسكينة :

– ونفس الأسباب ونفس الحكاية تكررت عندما تزوجت أختى الثانية بهيرة رغم أنها تزوجت ابن أحد أصدقاء أبى .. إنه هو الآخر ابن لأحد تجار وكالة البلح .. كان هناك تقارب كبير بين المجتمع الذى تعيشه أختى ومجتمع عريسها .. ولكنه هو الآخر تقدم إليها لأنها ابنة مليونير .. وقد أقيم حفل زفاف هائل فى قاعة هيلتون رغم معارضة أبى الشديدة .. فوالد العريس رغم أنه صديق لبابا إلا أنه يختلف عنه اختلافا تاماً فهو رجل اجتماعى يحب المظاهر ويعيش المجتمعات ويتفاخر بثرائه وينفق الكثير فى إشباع هذه الشهوة .. ولم يستطع أبى أن يستمر فى معارضته لإقامة حفل الزفاف الهائل لأنه لم يدفع نفقات إقامته ولكن الذى دفع كل شىء هو صديقه والد العريس . إن إقامة حفل الزفاف تدخل فى مسئوليات العريس .. وكأن بابا كان يتعمد الانتقام من صديقه بأن يجعله يدفع أكثر ، فدعا إلى الحفل كل العاملين معه وكل من لهم علاقة بعمله من كبار الموظفين والشخصيات ، وتركنا نحن أيضا ندعو إلى الحفل من نريد ، وقد دعوت أنا إلى الحفل كل صديقاتى وكثيرا من أساتذة الجامعة الأمريكية .. وقد ذهب أبى إلى الحفل وهو مرتد جلبابه وعلى رأسه لبدته التى

يحيطها بشال ملون ، ولم يحاول أن يغير أى شيء من مظهره الذى عرف به .. ووقف مع صديقه يستقبل المدعوين وهو قرفان من كل هذه المظاهر ثم انزوى على مائدة يحيط به العاملون معه فى مكتبه وأرسل أحدهم إلى الخارج وعاد إليه بشيشة كاملة تفرغ لتدخينها طول الحفل .. أما أمى فقد تعمدت أن تصنع ثوباً جديداً للحفل ولكن ذوق أمى فى اختيار ثيابها لم يتغير أبدا منذ كان زوجها عاملا ومنذ قبل أن يصل إلى نجاحه وإلى ثرائه .. ولا تتصور حالنا وأبونا يجلس بهذا المظهر الشاذ وسط هذا المجتمع وفى الهيلتون .. وربما أحسست بابتسامات الناس وهمساتهم وهم ينظرون إلى أبى .. ولكنى كنت كأنى أتحداهم فكنت أصحب كل صديقاتى وكل أساتذتى فى الجامعة وأقدمهم إلى بابا وماما .. كأنى أتعمد التفاخر بأبى رغم أنه يختلف فى مظهره عن أفراد هذه الطبقة وعن مظهر صديقه أبى العريس الذى كان يتعمد التظاهر بالمظاهر المودرن .. على كل حال فإن صداقة أبى بأبى العريس لم تكن صداقة شخصية خاصة ولكنها صداقة عمل وصداقة الارتباط بمجال واحد هو مجال وكالة البلح .. ولم يكن الزواج مجرد زواج .. كان للعريس هدف .. وكان هدفه من الزواج أن يدخل مع أبى فى مشروع جديد كبير لصناعة البلاستيك .. ولكن أبى رفض أن يدخل معه فى أى مشروع ربما لأنه اكتشف أن هذا الشاب لم يكتسب ثقة أبيه فيما يتحدث عنه من مشروعات .. فكيف يرفضه أبوه ويقبله أبى .. وظل أبى كما هى العادة لا يمد أختى بعد زواجها إلا بمائة جنيه فى الشهر .. وقد دام هذا الزواج أطول مما دام زواج أختى سنية .. ثم

الطلاق بعد عامين لا بعد عام واحد .. أما أختى الثالثة نفيسة فشيء آخر .. إنها شخصية مختلفة عنا حتى أنها لم تقبل منذ كانت صغيرة أن تعرف باسم نفيسة وأصبحت تحمل اسم نوفا .. وقد تقدم لها مصطفى وهو شاب من خريجى كلية التجارة وذكى إلى حد أنك تستطيع أن تحس بذكائه فى كل كلمة يقولها .. وقد استطاع بسرعة أن يكتشف كل عقلية وشخصية بابا ، بل استطاع أن يتسلل إليه حتى أخذه أبى للعمل معه فى الحسابات رغم أن أبى يتردد طويلا قبل أن يختار من يعمل معه وخصوصاً فيما يخص الحسابات .. وأعتقد أن مصطفى بلغ من ذكائه أنه لا يعيش واقع اليوم ولكنه يعيش المستقبل .. بعد أن يموت أبى ويصبح مسيطراً على ما ترثه زوجته .. وأنا لا يعجبنى مصطفى لأنى لست كأختى نفيسة ..

وقلت لها مقاطعاً وقد بدأت أخمن ما تقصده :

– لماذا تحكين لى كل هذه الحكايات ..

قالت فى أسى :

– حتى تعرف أنى فتاة معقدة ..

قلت صارخاً :

– هل تريدين أن أؤكد لك أنى لا أطمع فى أموال أبيك .. ومن يدرى .. حتى لو أكدت لك فربما تقولين عنى ما قلته عن روزالين .. أنها قبلت أن تتزوج أخاك بلا مهر ودون أن يعتمد على أبيه ولكنك تؤكدين أن لابد فى عقلها مشروعات .. وربما تتصورين أن فى عقلى مشروعات أنا الآخر .. ولا يمكن أن تكونى تحبيننى فعلاً ما دمت تشكين فى أن لى أطماعاً فيك ..

قالت وهى تنظر إلىّ فى حب من خلال ابتسامتها الحلوة :

– إنى أحبك .. ولست فى شك فيك .. ولكن وحتى أكون صريحة فإن أخشى ما أخشاه إذا تزوجنا أن تعايرنى بأنك استغنيت عن أبى .. وأحس كأنك مننت علىّ بهذا الاستغناء .. إنى لا أقبل أن أحس بأنك تمن علىّ بشىء .. فالحب لا يحتمل أن يكون واحداً منا منوناً على الآخر ..

قلت كأنى أسخر من كلامها :

– إن ما لا يصدقه عقل هو أن تقولى أنك لن تتزوجى أبداً مهما كانت الأسباب .. قولى أنك لن تتزوجينى أنا ..

وتركت مقعدها وجلست على الأرض تحت أقدامى وذراعاها مستندان على ركبتى وقالت وهى تبتسم :

– إذا تزوجت فلن أتزوج إلا أنت .. ولكنى أريد أن أنتظر حتى أتم بناء شخصيتى .. أنجح وأعمل وأكسب .. حتى تصبح شخصيتى منفصلة عن شخصية أبى .. حتى لا أكون مجرد ابنة عبد الغفور البرعى .. وأعيش فى غنى عنه لأكون أنا وزوجى فى غنى عنه ..

وصحت :

– وأنا لا أستطيع أن أحبك كل هذا الحب وأعيش محروماً منك كل هذا الحرمان .. إنى حتى هذا اليوم لم أقبل حبيبتى إلا هذه القبلات الخاطفة السريعة .. ليست قبلات الحب ..

وقالت وهى تسند رأسها على ركبتى :

– لن تعيش محروماً ..

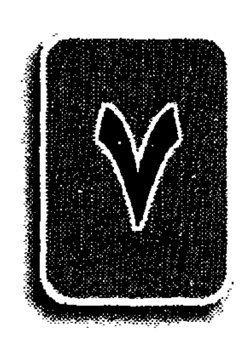
وعدت أصيح :

- إنى لن أستطيع أن أنتظر حتى تبدئى أنت قبل أن أبدأ .. لن أعيش تحت أمرك .. سأبدأ أنا حتى لو لم تبدئى ..

ومددت يدى وقبضت على ضفيرتها فى قسوة وشددت رأسها إلىّ فى عنف حتى أصبح كل وجهها ملتصقاً بوجهى وشفتاها ملتصقتين بشفتى .. وسمعتها تهمس :

- لقد قررت أن أبدأ ..

وكل شفتيها المكتنزتين بين شفتى ..



كانت معظم وأمتع الأحاديث التى تدور بينى وبين نظيرة هو الحديث عن أخيها عبد الوهاب وزوجته روزالين بعد أن أصبحا يعيشان فى غرفتين داخل بيت عائلة البرعى .. الغرفة التى كانت دائماً غرفة نوم برعى وقد تركاها كما هى لم يضيفا إليها شيئاً ولا حتى فكرت روزالين فى تغيير وضع قطع الأثاث فيها .. والغرفة الملتصقة التى كانت سابقاً غرفة نوم أخيها عبد الستار الذى هاجر إلى انجلترا وقد خصصاها كغرفة جلوس وزحماها بكل ما يعبر عن الدين الإسلامى .. أصبحت حوائطها مغطاة بلوحات تحمل آيات القرآن وصوراً لرجال الإسلام القدامى المعروفين كان من بينها صورة للشيخ حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين رغم أن عبد الوهاب لم ينضم أبدا إلى هذه الجماعة .. ربما كان عبده يتبرك ويزداد تقربا إلى إيمانه بتعليق صورة حسن البنا .. كما وضعا فى الحجرة مسندين يحمل كل منهما مصحفا كبيرا من

مـصاحف القـرآن .. مصـحف لكل منهمـا .. وفى جانب آخـر أسندا سجادتين للصلاة .. سجادة لكل منهما .. وكان يواظبان على أداء الصــلاة كاملة .. وربما كـانت روزالين أكثـر حرصـاً على مواعـيد الصلاة من عـبد الوهاب .. إنها تصلى الفـجر فى موعده .. والظـهر .. والعصر .. والمغرب .. والعـشاء .. كل فى موعده تماماً عقب الأذان به .. بل إنها بعد أن عقدا القران وجاءا إلى البيت ودخلا غـرفتيهمـا قاما أولا بالصلاة ركـعتين شكراً وابتهالا إلى الله أن يوفقهمـا .. ثم أعطى كل منهما نفسه للآخر كزوج وزوجة ..

وقلت لنظيرة وأنا فى حيرتى من شخصية عبد الوهاب :

– هل تعلمـين أن أول امـرأة يلمـسهـا أخـوك هى زوجتـه روزالين ..

وقالت نظيرة من خلال ابتـسامتها وفى عينيـها نظرة كأنها نظرة إعجاب بأخيها :

– أعرف .. لم تكن فى حـياته نساء قـبل أن يتزوج .. ولكن هل تعرف ما هو أغرب ؟

وقلت فى لهفة من خلال لهفتى على معرفة كل أخبار عبده :

– ماذا ؟

قالت ضاحكة :

– لقد كانت الزوجة عذراء ..

قلت كأنى ألومها :

– وماذا يدهشك فى ذلك ؟

قالت مبتسمة ابتسامة ساخرة :

– إنها أمـريكية .. عـاشت طفولتـها وشبـابها فى المجـتمع

الأمريكى .. وهناك لا يعتبرون العذرية كشرط من شروط الزواج .. إن العذرية هناك لا تحمل أى معنى .. ومن حق الفتاة أن تبدل عذريتها فى سن البلوغ كتبديل الأسنان فى سن الطفولة ..

وقلت كأنى أنهرها :

– إن المجتمع الأمريكى لا يدعو البنات إلى فقدان عذريتهن .. ولكنه مجتمع يترك للبنت حريتها فيما تريد .. إما أن تريد أن تكون بكراً أو تريد أن تكون امرأة .. ولكن العذرية لم تفقد معناها فى أمريكا .. معنى الطهارة .. ومعنى النظافة .. فهذه البنت لم يمسها رجل .. وأنا واثق أن الزوج الأمريكى يفرح الفرحة الكبرى عندما يكتشف أن الفتاة التى تزوجها لا تزال عذراء .. إن الفتاة فى أمريكا مثلك وخصوصاً أنك طالبة فى الجامعة الأمريكية .. لماذا تصرين على الاحتفاظ ببكارتك ولا تسمحين لى إلا بالقبلات رغم كل ما بيننا .. لأنك تريدين أن تبقى عذراء رغم أن بيننا فتيات كثيرات لم يتمسكن بعذريتهن .. وهن أحرار وأنت حرة فى الحياة بإرادتك ..

وقالت نظيرة كأنها تتحدانى :

– لا ليست الحرية .. إنى مقيدة بإيمانى بأن ليس من حق أن أفرط فى عذريتى إلا بإذن من الله .. إلا بالزواج .. وإيمانى لا يزال أقوى من حبى ..

وقلت ساخراً :

– وأنا الضحية .. لا تريدين الزواج ولا تستطيعين التفريط فى إيمانك ..

وقالت محتدة :

– وأنا أيضاً ضحية .. ضحية إيمانى .. أنا أيضاً محرومة ..

كلانا محروم من الآخر ويتعذب .. ولكنه عذاب لذيذ ..

وقلت وأنا أحس بأنى أتنهد كأنى أرثى نفسى :

– عذاب الرجل أقسى وأضعاف عذاب المرأة .. ولا أريد أن نتحدث عن الفرق السيكولوجى والفسيولوجى بين الرجل والمرأة .. وقولى لى .. كيف عرفت أن روزالين عذراء ؟

وقالت ضاحكة :

– أنت تعلم أنى الوحيدة التى تستطيع أن تصارح أخى عبد الوهاب بكل ما يخطر على بالى كما أنى الوحيدة التى يصارحها .. وقد قمت فى صباح ليلة القران وأنا مصرة على أن أعرف .. هل هى عذراء .. واختليت بأخى وسألته .. وأجابنى فى دهشة من سؤالى :

– طبعاً .. لماذا تسألين ؟

وقلت له :

– لأنها أمريكية ..

وقال أخى فى غضب وسخط :

– مهما قيل عن الأمريكان .. فأمينة شىء آخر .. إنها مسلمة ..

وكأنها لو لم تكن عذراء لما أسلمت .. وبالمناسبة .. إن أخى عبد الوهاب يغضب كلما سمع أحداً ينادى زوجته باسم روزالين .. وله حق .. ولماذا نناديها باسمها المسيحى وكأننا ننكر عليها إسلامها .. تعال نناديها باسمها الذى أسلمت به .. أمينة .. ولو أننا فى البيت حيارى كيف نناديها .. أمينة أم روزالين .. كأننا لا نستطيع أن نحس بها كمسلمة ولا نستطيع أن نجاهرها بأنها أمريكية غريبة عن الإسلام .. وانتهينا إلى

أننا أصبحنا لا نناديها بأى اسم .. إننا نناديها بالصفات .. يا حبيبتى .. يا أختى .. يا عزيزتى ..

وكان عبد الوهاب وروزالين - آسفة .. أقصد أمينة - مختلين دائماً في غرفتيهما ما داما فى البيت لا يخرجان إلى بقية أنحاء البيت إلا إذا كانا فى حاجة إلى شىء .. كأن يخرجا ليجلسا مع بقية أفراد العائلة على مائدة الغداء .. وكانت أمينة تخرج وحدها أحيانا وتدخل المطبخ لتأكل فى غير مواعيد الغداء أو العشاء .. وكانت تحمل من المطبخ ما تجده إلى غرفتيهما .. ولم يحدث أبدا أن اقترحت علىّ أى صنف من الطعام أو علقت بشىء أو اعترضت أن تقوم بإعداد لون خاص من الطعام .. بل إنها لا تشترك فى أى عمل من أعمال البيت خارج الغرفتين .. كأنها غريبة تعيش فى بنسيون .. ومنذ صباحية يوم الزواج الأول خرجت أمينة من البيت ، وركبت الموتسكل الذى تملكه واختفت حتى الساعة الخامسة بعد الظهر .. لابد أنها استأذنت زوجها .. لقد ذهبت إلى عملها .. لم تحس أن الزواج يفرض عليها أن تأخذ أجازة من العمل .. إن الأجازة لا تكون إلا للقيام بعمل آخر .. والزواج فى رأيها ليس عملا يستحق أجازة .. والغريب أن عبد الوهاب وافق .. ووافق أيضاً على أن تستمر فى ركوب الموتسكل بين الشوارع .. إنه من معدات التنقل حتى لو كانت تركبه امرأة وليس فى ذلك أى حرام ما دامت المرأة لا تكشف عن المحرمات من جسدها .. ربما كانت هى التى أقنعته بهذا الكلام .. بل إنه لم يعترض عندما قالت له إنها مرت فى طريقها لزيارة صديقتها فوزية .. ما هذه الصداقة التى تدعو عروساً إلى

زيارة صديقتها فى صباحية ليلة زفافها !!

وكانت نظيرة هى الوحيدة التى تستطيع أن تتجرأ على خلوة عبد الوهاب وأمينة وتفتح عليهما غرفتيهما .. وكان قد مر ثلاثة أيام على زواجهما عندما دخلت نظيرة إليهما فوجدتهما جالسين فى غرفة الجلوس وكل منهما ساهم مبلم متباعد عن الآخر .. وسألتهما نظيرة ضاحكة كعادتها :

– مـاذا بكما .. هل انتهى شهر العسل .. أم وجدتما فى العسل مرارة ؟!

وظلا صامتين برهة إلى أن انطلقت روزالين ـ أقصد أمينة قائلة فى ثورة :

– اسمعى يا نظيرة .. إنى أعلم أنك أقرب أخوات عبده إليه .. فساعدينى على إقناعه .. إنى منذ اليوم الأول الذى التقينا فيه وأنا ألح عليه ليعمل وهو لا يريد أن يعمل ..

وقال عبد الوهاب فوراً :

– اسأليها أين تريدنى أن أعمل ..

وقالت أمينة وهى توجه كلامها إليه رداً عليه :

– إنى أريدك أن تعمل مع أبيك .. أى خطأ فى أن تعمل مع أبيك ؟ .

وقال عبده كأنه تجاهل وجود نظيرة بينهما ويعيد المناقشة من جديد :

– قلت لك إنى لا أريد أن أعمل مع أبى كما أنك أنت رفضت العمل مع أبيك رغم أنه يملك متجر أحذية كبيراً فى بلدكم ..

وصاحت روزالين .. آسف .. أمينة :

– إنى لم أعمل مع أبى لأنى أريد أن أدرس .. ونلت شهادة

وأصبحت متخصصة فى علاج اللثة .. أما أنت فإنك ترفض العمل مع أبيك دون أن تحدد لنفسك طريقاً يحقق مستقبلك .. إنك حتى لم تتم دراستك ولم تدخل الجامعة ولم تتخصص فى شىء ..

وقال عبده ساخراً :

– إن أبى لم يدخل الجامعة ولا أى مدرسة ولا حتى روضة الأطفال .. إن العمل مع أبى لا يحتاج لدراسة ولا لشهادات ..

وعادت أمينة تصيح :

– إنى أعرف كل شىء عن أبيك .. إنه لم يهرب من المدارس ولم يحرم نفسه من التعليم فاعتمد على نفسه وعلى ذكائه وعبقريته حتى حقق لنفسه المعجزة .. ولكنك أنت لست محروماً من التعليم ولكنك حرمت نفسك منه .. وأنا مثلك لا أعتبر أن الشهادات الدراسية هى التى تحقق مستقبل الإنسان .. وكثير من العباقرة وأصحاب الملايين عندنا فى أمريكا لم يدخلوا الجامعات ولم يحصلوا على شهادات .. وأنا لا أريدك أن تتم تعليمك ولكنى أريد أن تعمل وتحاول لعلك تحقق المعجزة التى حققها أبوك أو على الأقل تستمر فى إحياء معجزته .. فهل أنا مخطئة .. هل أتجنى عليك لأنى أريدك أن تملأ فراغ حياتك وتعمل ..

وقال عبده وهو أيضاً يصيح :

– قلت لك إنى منذ سنوات وأنا أفكر وأبحث حتى أستطيع أن أعمل بعيداً عن أبى .. وقلت لك أنى مستعد أن أسافر معك إلى أمريكا وأبدأ العمل هناك حتى لو عملت مع أبيك فى تجارة الأحذية .. بل إنى فكرت أن أحولها مع أبيك من تجارة إلى

صناعة .. وأستطيع أن أدبر رأس المال الذى يكفينا لإقامة هذا المشروع هناك ..

وقاطعته أمينة وهى تلوى شفتيها الرفيعتين فى قرف :

– لو كنت أستطيع أن أعود إلى أمريكا وأترك مصر لما تزوجت مصرياً .. لما تزوجتك ..

وقال عبد الوهاب موجهاً كلامه إلى نظيرة وكأنه كان قد نسى وجودها :

– إنها لا تستطيع أن تفهم وتقدر .. وكل ما يسيطر على مخها استغلال أبى ..

ثم عاد والتفت إلى أمينة واستطرد صائحاً :

– اسألى نظيرة .. هل ترضى أن تعمل مع أبى رغم أنها ستنتهى من دراستها وتصبح إنسانة كاملة ..

وقالت لهما نظيرة وهى تضحك :

– استمرا فى المناقشة أسبوعاً أو شهراً أو شهرين إلى أن تتفقا .. وستتفقان لأنكما زوجان .. والمناقشة تحيى وتملأ الحياة الزوجية .. وسأترككما ..

وخرجت نظيرة من الغرفة كأنها تهرب منهما ..

وسألت نظيرة بعد أن حكت لى هذه الحكاية بكل تفاصيلها :

– وماذا كان رأيك أنت ؟

وسكتت نظيرة برهة ثم قالت فى صوت مسكين :

– إن أخى عبد الوهاب على حق .. وروزالين معذورة .. إنها لا تستطيع أن تقدر العقدة التى نعانى منها تجاه أبى .. العقدة التى دفعت أخى عبد السلام للهجرة إلى انجلترا والتى تدفع

عبده إلى الهجرة هو الآخر .. لقد سبق أن حاول الهجرة ولم يفلح فى الحياة بعيداً عن أبيه ، ومن حقه أن يحاول الهجرة مرة أخرى بعد أن تزوج أمريكية .. إنها عقدة عجيبة غريبة كخيوط العنكبوت ومن الصعب على من لا يعانيها أن يفهمها .. ولكنك لا تدرى ما حدث بعد ذلك ..

وسكتت كأنها تتحسر وقلت أتعجلها فى لهفة :

– ماذا حدث ؟

وقالت نظيرة وهى متحسرة :

– لقد فوجئنا بعبد الوهاب يخرج من حجرته ويأتى ليجلس معنا وحده على مائدة العشاء .. وصحنا جميعاً مندهشين .. أين زوجتك .. ما عدا أبى فهو لم يردد معنا هذا السؤال .. إنه لا يحب أن يتدخل فى حياة ابنه ما دام لم يجد ما يمسه ..

وقال لنا عبد الوهاب دون أن ينظر إلينا :

– ستنام الليلة عند صديقتها فوزية ..

ثم استطرد ضاحكاً :

– إن كلا منا فى حاجة إلى ليلة راحة ..

ولم ينطق أحد منا بكلمة .. وأخذنا نتبادل النظرات فى صمت ربما لوجود أبى بيننا .. ولكن أبى ضحك ضحكة كبيرة وهو يقول لعبد الوهاب :

– هذا هو الفرق بينى وبينك .. لقد عشت مع أمك أربعين سنة ولم آخذ ليلة راحة واحدة .. أما أنت فقد احتجت لليلة راحة ولم يمض على زواجك أيام ..

وقال عبد الوهاب فى وجوم :

– إن أمى نعمة يمن الله بها كزوجة على من يرضى عليهم

من عباده .. ولم يتم رضا الله عنى حتى يمنحنى مثل أمى ..

وقال أبى كأنه ينهر أخى :

– إن الله يرضى عن العاملين الذين يعملون ليصلوا إلى ما كتبه لهم من رزق ..

ولم يرد عبده على أبيه إنما ابتلع لقمة من الطبق الذى أمامه ثم قام من حول المائدة دون استئذان ودخل حجرته بسرعة .. لقد كان غريباً أن يجلس معنا على مائدة العشاء فهو لم يتعود أن يتعشى معنا حتى بعد أن تزوج كانت زوجته أمينة تدخل المطبخ وتعد له ولها صينية العشاء وتعود بها إلى حجرتهما .. وقد دخلت إلى أخى عبده فى حجرته بعد العشاء وقلت له مشفقة عليه :

– أصدقنى .. لماذا ذهبت أمينة لتنام عند صديقتها ..

وقال ساهماً :

– صدقينى .. لقد أردنا أن نرتاح من مناقشاتنا .. وأمينة أوربية أمريكية فلا تنتظرى منها التقاليد التى تحكم عاداتنا وتحرم عليها المبيت بعيداً عن زوجها ..

وقد قضيت معه ساعات طويلة من الليل متعمدة دون أن أشعره بأنى أخفف عنه ..

وقلت لنظيرة وأنا متعجب حائر مما أسمعه :

– إنى لا أستطيع حتى اليوم أن أجد ما يقنعنى بأسباب زواج عبده من روزالين ..

وقالت نظيرة وهى تهز رأسها فى أسى :

– إنى أعتقد أنها مجرد تجربة قرر عبده أن يخوضها ..

وبعد يومين عدنا فى لقائنا أنا ونظيرة نتحدث كعادتنا عن

أخيـها وزوجتـه الأمريكية ، وقـالت نظيرة وهى تبتـسم وتهز رأسـها كأنها متعجبة من الأحوال التى تشـهدها :

– لقد عادت أمينة إلى البيت فى اليوم التالى .. لم تقض مع صديقتها إلا ليلة واحدة .. وقد عادت متغيرة .. إنها تقضى كل وقتها وهى فى البيت خارج غرفتها .. وتقبل على الجلوس معنا ولا تكف عن الكلام وتشترك مع أمى فى أعمال البيت .. إلى أن عاد أبى فـى المساء إلى البـيت كعادتـه .. وكأنها تفـرغت له .. جلست معه فى الصـالة قبل تناول العشاء وأخذت تحـدثه عما جمعـته من معلومات حول تجـارة الحديد الخردة وعن تصنيع الحديد .. إنها تـروى معلومات قيمـة فعلا .. ربما كان بعـضها جديداً بالنسـبة لمعلومـات أبى وخبراته .. وكـان يستمع إليـها أحيـاناً بجدية .. وأحيـانا يعلق ضاحكا .. إلى أن قـالت له بعد الكلام الطويل :

– لقد وعدتنى أن أعمل معك ..

وضحك أبى ضحكة كبيرة وقال كأنه لا يعنى ما يقول :

– بإذن الله ..

وقالت أمينة وعيناها تبرقان :

– إنى أريد أن أعـمل مـعك مـن اليـوم .. لقـد درست كل ما يـتعلق بالعـمل دراسة واسـعة .. ضـعنى فى أى مكان من العمل وأنا واثقة مـتأكدة أنى سأحقق لك الكـثير وسنبنى وأنا معك مستقبلاً باهراً واسعاً ..

وسكت أبى فترة ثم قال وهو يبتسم وإن كان صوته جاداً :

– إنى لا أستطيع أن آخذك من زوجك ..

قالت فى دهشة :

- ماذا تقصد ..

وقال أبي في هدوء :

- إن عبد الوهاب لا يريد أن يعمل معى .. فأقنعيه أولاً بالعمل وسأرحب بك معه لتكونا معاً ويكون مسئولاً عنك ..

وصاحت أمينة كأنها دهشت :

- مالى ومال عبد الوهاب .. إن لكل منا عمله .. إنه لا يعمل معى فى مكتب شركة البترول ، ولا يعمل معى وأنا أكشف على مرضى اللثة .. وأنا لا أعمل معه فيما لا أدرى ما يعمله .. إن لكل منا عمله الخاص ..

وقال أبى من خلال ابتسامته :

- إنه زوجك ..

وعادت أمينة تصيح :

- وما دخل زوجى فى هذا الموضوع .. هل تريد أن استأذنه ..

وقال أبى وهو ينظر إليها كأنه يطلب منها أن تنهى هذا الموضوع :

- إنه ابنى .. ولا أستطيع أن تعمل معى زوجة ابنى وأنا حائر فى ابنى .. إنه وضع غريب .. واسمعى يا ابنتى .. إنى رجل عجوز .. دقة قديمة .. ولى طبيعتى الخاصة .. وما تجدينه عادياً عندكم فى أمريكا قد يكون غريباً عجيباً عندنا .. كيف تعمل معى زوجة ابنى ولا يعمل ابنى .. إنى لا أستطيع كلما رأيتك أمامى أن أتخلص من إحساسى بابنى فكيف أرتاح لك إذا رأيتك معى فى عملى ..

ورغم هذا ظلت أمينة تلح وأبى مصمم على الرفض إلى أن

قامـت من أمامـه غاضبـة ودخلت غـرفتهـا إلى زوجهـا الذى لم يحـضر هذه الجلسـة ولم يسـمع كل هذا النقاش ولم يبـد رأيه .. ولم يتناولا معنا هما الاثنان طعام العشاء ..

وتنهدت نظيرة فى أسى وقالت فى صوت حزين :

– لقد تأكـدت وأنا أسمع هذا الكلام أن أخى ضحـية أبى .. ويضيـع فى تضحـية جديدة .. مـاذا تفهم من كـلام روزالين أو أمـينة .. إن كل مـا فهـمـته هـو أنها لم تتـزوج أخى لأنهـا تحبـه .. أو لأنها اسـتراحت إلى تدينه وتطرفـه فى الإسلام .. أو أنها أعجبت بـشخصيته .. أبدا .. لقد تزوجـته فقط لأنه ابن الحاج عبد الغفور البرعى .. وكانت قد جمعت كل المعلومات عن ثراء الحاج عبد الغفور فتـزوجت ابنه لتستغل هذا الثراء .. وقد حـاولت أولاً أن تقـوم بهـذا الاسـتـغلال عـن طريق ابنه الذى تزوجتـه .. وعندما خيب الابن أملهـا حاولت أن تستـغل الحاج عبد الغفـور مباشرة بأن تعمل معه .. إنى لم أعـد أطيقها .. بل إنى لم أعد مقتنعة بأنها أسلمت من أجل الإسلام .. لعلها أرادت أن تستغل الإسلام أيضاً ..

قلت كأنى قررت أن أجادلها وأتحدى آراءها :

– ومن أدراك أن أخاك نـفسه لم يتـزوجهـا لأنه أحبـها .. أو لأنهـا أسلمت .. أو لأنه أعجب بهـا .. إنهـا ليست مـجرد امـرأة جميلة تثيـر الإعجاب .. بل إنه لم يتزوجها لحـاجته إلى امرأة .. أى امـرأة .. فـقد قـضـى عـمـره كله دون أن يمس امـرأة .. إنه تزوجها هو الآخر لـتحقيق أطماعه .. قد يكـون كل ما دفعه إلى الزواج هو أن يسافر معها إلى أمريكا ويحقق مستقبله هناك بعد أن يحصل هو نفسه على الجنسية الأمريكية بحكم الزواج ..

وقالت نظيرة وهى تنظر إلىّ فى لوم :

– لا يهمنى ماذا يريد أخى .. إن ما يريده خاص به وأطماعه لا تمسنى ولا تؤثر فىّ .. ولكن أطماع زوجته تمس كل عائلتى لأنها أطماع فى استغلال أبى .. وهى أطماع حرمتنا أنا وإخوتى من أن نستطيع أن نعيش حياة عادية مثل كل الناس .. حرمتنا أن يتزوج أى واحد فينا من أجل شخصه .. إننا لا نتزوج إلا من أجل فلوس الحاج عبد الغفور ..

وقلت مشفقاً :

– هذه عقدتكم كلكم ..

قالت كأنها تهم أن تبكى :

– هذا صحيح ..

قلت وأنا أقترب منها وأحتضنها :

– لقد فكرت فى مشروع لأخلصك من هذه العقدة .. بأن أحررك من أبيك .. ونتزوج ..

قالت بلا مبالاة :

– كيف ؟

قلت وأنا أضمها إلى صدرى وأرفع رأسها وعيناى فى عينيها :

– أتزوجك بلا أبيك .. أى أتزوجك الآن دون أن نخبر بابا وتتركين البيت كأنك تهربين .. ونعيش هنا معاً... زوجاً وزوجة .. وطبعاً سيثور بابا بعد أن يعلم وسيطردك من عائلته .. لن يمدك بأى مساعدة .. وسيقطع عنك مصروفك .. وقد يحرمك من الميراث .. وبذلك تتأكدين أنى تزوجتك لشخصك لا لأنك ابنة الحاج عبد الغفور البرعى .. فلن أنال منه

شيئاً فى حياته ولا بعد وفاته .. وستبنين كل شخصيتك الحرة بعيداً عن أبيك وتتحررين من عقدتك .. وتكونين لحبيبك .. لى..

ولم أقل هذا الكلام لمجرد إرضائها وتهدئتها فى أزمتها ولكنى كنت أتمنى فعلاً زواجها حتى لو هربنا بزواجنا عن أبيها .. لقد أصبحنا نعيش كزوجين بلا زواج .. فهى تحمل مفتاح الشقة وتذهب إليها سواء كنت أنا فيها أو لم أكن .. لقد قلبت الشقة .. غيرت كل أثاثها واهتمت أكثر بتغيير غرفة النوم حتى أنها أعادت طلاءها بلون أخضر فاتح كأنها كانت تمسح كل الماضى الذى عشته فى هذه الغرفة مع الأخريات .. وكنت أنا الذى أدفع كل النفقات .. وربما كانت تتعمد أن تتركنى أدفع تحت تأثير عقدتها بأن الناس تنظر إليها لمجرد أنها ابنة رجل غنى .. وإن كانت تدفع بجانب ما أدفعه .. تشترى أصنافاً من المأكولات أو تحفة صغيرة من التحف التى تزين بها الشقة .. أنا دائماً الذى أدفع أكثر .. وكل هذا وأمنيتى تشتد يوماً بعد يوم بأن أتزوجها .. إنى أحبها ..

وابتعدت نظيرة عن صدرى وسحبت عينيها من عينى وقالت كأنها تحدث نفسها :

– ليس مما يثبت حريتى وقدرتى على أن أستقل بشخصيتى عن أبى أن أهرب منه ونتزوج بعيدا عنه .. بالعكس .. هذا سيجعلنا أكثر استسلاماً له .. ونعيش زواجنا كأننا هاربان من القوة الأعظم التى هزمنا أمامها .. قوة أبى .. وبالعكس .. إن والدى قد يوافق على زواجنا بلا مبالاة لأن ليس من طبيعته فرض إرادته على أولاده .. ولكن ما يجعلنى أقيم شخصيتى الحرة هو أن أستقل عن أبى وأنا حرة .. أن

أعيش ولست فى حاجة إليه .. وأن يكون لى اسم ليس فى حاجة إلى اسمه .. أن أنادى باسم نظيرة عبد الغفور البرعى فلا يتذكر أحد أبى عبد الغفور البرعى .. ولا زلت فى حاجة إلى وقت حتى أستطيع أن أحقق الشخصية التى أريدها لنفسى ..

وقلت فى يأس :

– لقد أصبحت أنا الآخر معقداً من أبيك ..

قالت وهى تلتصق بى :

– لأنك أصبحت أنا ..

وأعطتنى كل شفتيها المكتنزتين بين شفتى كأنها تسكتنى ..

●●●

ومرت أسابيع قليلة .. أسبوعان أو ثلاثة .. وجاءت نظيرة يوماً ووقفت أمامى تقول وكأنها تتعمد أن تكون ساخرة :

– خبر جديد .. روزالين سافرت إلى أمريكا ..

وقلت فى دهشة المفاجأة :

– لماذا ؟

قلت من خلال ضحكة ساخرة :

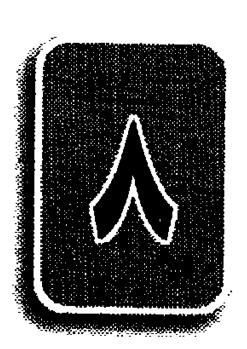
– قالت لأخى أنها تريد أن ترى أمها ..

قلت من خلال المفاجأة :

– وهل سافر أخوك معها ؟

قالت وهى تجرى إلى المطبخ :

– لا .. أصرت على أن تسافر وحدها ..



كانت نظـيرة قد تناقـشت مع أخيـها عـبد الوهاب مناقـشة حادة كـأنهما يتـشاجران .. كـيف يسمح لزوجـته روزالين أن تسافـر وحدها إلى أمريكا ولم ينقض على زواجـهما أكـثر من أسبوعـين أو ثلاثة .. أين الزواج .. أين ما تطلبه الحـياة من أن يعـيش الزوج مع زوجتـه .. متـقـاربين .. ملتصـقين .. إلى أن يصل كل منهمـا إلى أعماق الآخـر .. وقد رد عليهـا أخوها فى فتور :

– إن من حقها أن تسافر لترى أمها .. على الأقل لتحكى لها حكاية زواجها ..

وصاحت نظيرة ثائرة :

– لماذا لم تكتف بأن تحكى لأمهـا فى خطاب أو برقية .. أو لماذا لم تدع أمها إلى مصر لتراها وتعيش معها دون أن تتركك وتفـسد الحـيـاة الزوجيـة وأنتـما فى شـهـر العسل .. كـانت تستطيع أن تدعو أمـها وتقيم معكما هنا فى البيـت وتخصصا

لها الحجرة التى تتخذانها حجرة جلوس .. ولم يكن أبى أو أحد فى البيت سيعترض على تشريفها .. هذا إذا كنتما تريدان توفير نفقات إقامتها فى فندق ..

وقال عبد الوهاب وهو لا يزال فاتراً :

– قلت لك إن شخصية الفتاة الأجنبية أو الأمريكية تختلف عن شخصية الشرقية .. إن شخصية أمينة تختلف عن شخصيتك أنت مثلا .. وكل ما تعيشين فيه من آراء وتقاليد وأحاسيس لا تعيشه أمينة .. وأنا أعاملها بشخصيتها لا بشخصية الفتاة الشرقية وتقاليد الحياة الشرقية ..

وعادت نظيرة تصيح :

– ولماذا تركتها تسافر وحدها .. لماذا لم تسافر معها .. إنى أعلم أن من أعز أمانيك أن تسافر إلى أمريكا ..

وقال عبد الوهاب وهو يتنهد كأنه يتذكر أحلامه :

– إنها لن تغيب طويلا .. وقد وعدتنى أن نسافر معاً فى المرة القادمة ..

وتركته نظيرة وهى ساخطة ناقمة لا عليه ولكن على روزالين . لقد أصبحت تناديها باسم روزالين لا باسم أمينة ..

ولم تنقض سوى عشرة أيام أو أكثر بيومين حتى جاءت إلىّ نظيرة وقالت وهى تلهث مبهورة وإن كانت مبهورة فى غل :

– تصور ماذا حدث ..

وسكت برهة وقلت ضاحكاً :

– اعملى معروف لا تعذبينى بالتصورات ..

وقالت كأنها لم تسمع كلمتى :

- لقد عادت روزالين من أمريكا ..

ثم ألقت نظيرة بنفسها على المقعد كأنها مهدودة وبدأت تحكى الحكاية ..

لقد عادت روزالين إليهم فجأة دون أن ترسل برقية ليستعد زوجها لاستقبالها وانتظارها فى المطار .. عادت فى بساطة كما سافرت فى بساطة وكأنها لم تسافر إلى أقصى الدنيا .. إلى أمريكا .. كأنها ذهبت إلى خان الخليلى فى مصر وعادت .. وقد عادت دون أن يبدو عليها أى تغيير .. نفس الوجه المصوص الساطع البياض .. والشفتين الرفيعتين كأنهما خطان على وجهها .. والعينين الضيقتين اللامعتين .. كان كل ما يبدو عليها من تغيير أن ثوبها الذى كان يتدلى حتى قدميها مغالاة فى تتبع تقاليد الإسلام قد ارتفع وإن لم يكشف عن ركبتيها .. كما أن الثوب كشف عن ذراعيها وإن لم يصل حتى كتفيها .. لاشك أنها عادت وتأثرت هناك بالمجتمع الأمريكى . وقد عادت وهى تحمل هدايا لكل أفراد العائلة وإن كانت كلها هدايا رخيصة .. جاءت لكل بنت من البنات ببلوزة فاقعة اللون .. وجاءت للأم بزجاجة عطر رغم أن الأم لا تتمسك بالعطور .. وجاءت للحاج عبد الغفور بعدة حلاقة كاملة غالية نسبياً .. ولم ير أحد ماذا جاءت به لزوجها .. ومنذ جاءت وهى تتقرب وتجامل كل أفراد العائلة وتحكى لهم حكايات عن أمريكا وعن أمها وأبيها .. ونظيرة تحس بأن هذا التقارب متعمد مفتعل .. لابد أن هناك شيئاً عادت به وتريده لنفسها .. إلى أن عاد أبوها فى المساء واستقبلته روزالين فى فرحة لعلها أيضاً فرحة مفتعلة .. ورد عليها أبوها بترحاب وحنو وابتسامة

طيبة حلوة .. إنه رجل طيب وإن كانت طيبته لا تؤثر في ذكائه .. وجلست روزالين معه في غرفة الجلوس كما هي العادة قبل العشاء وكل أفراد العائلة حولها ما عدا زوجها عبد الوهاب الذي بقي منعزلا في غرفته .. وقدمت له روزالين هديتها وأخذت تحكي له هو الآخر عن أمريكا وعن أبيها وأمها ، وقالت ضاحكة :

– لقد كانت صورتك التي عرضتها على أبي وأمي هي أكثر الصور التي أعجبوا بها .. لقد أحسا بأنك تمثل الشرق كله ..

وقال الحاج عبد الغفور ضاحكاً :

– إني أدعوهما إلى الشرق حتى يكونا منا ويستشرقوا .. لقد أصبحنا نسايب .. مصر وأمريكا ..

وبعد كلام كثير سكتت روزالين برهة ثم قالت في لهجة جادة وعيناها الضيقتان تزدادان بريقاً :

– لقد عدت من هناك بمشروع أعتقد أنه يهمك ..

وقال الحاج عبد الغفور بلا اهتمام :

– خيراً ..

وأدارت روزالين عينيها بين أفراد العائلة الجالسين معها كأنها تتردد ، ولمح الحاج عبد الغفور بذكائه ترددها فقال لها مبتسماً ابتسامته الطيبة :

– هل تفضلين أن نكون منفردين بعيداً عن هذا الزحام..

وقالت روزالين كأنها قررت :

– لا .. لا يهم .. إني أعلم أنه مشروع لا يهمهم ولا يدخل في اختصاصهم .. ولا مانع من أن يسمعوه لعل لهم رأياً فيه ..

ولكن الأم ما كادت تسمع هذا الكلام حتى قامت من الغرفة

ولحقت بها ابنتها الكبرى .. إنهما تعودتا ألا يسمعا أى كلام خاص بأعمال الحاج عبد الغفور .. أما نظيرة فقد قررت أن تبقى وتشبثت بمقعدها لأنها تريد أن تعرف .. وأختها الأخرى بقيت أيضاً لتتسلى .. وكانت روزالين تسكت قليلا كأنها تلتقط أنفاسها لتستعد لعرض مشروعها ثم استطردت قائلة :

– إنى أقدر الأسباب التى دفعتك إلى أن ترفض أن أعمل معك ما دام عبده لا يعمل معنا .. لك حق .. ولكنى من يومها وأنا أفكر فى شىء جديد أستطيع أن أقدمه لك لأنى مبهورة بنجاحك .. أقدمه لا كعاملة معك ولكن كعمل خاص بى قد أستطيع فيما بعد أن أتعاون فيه مع زوجى عبده .. وكان أول ما اكتشفته أن الحكومة المصرية تبيح للقطاع الخاص أن يستغل القروض الأجنبية ويعمل بها لحسابه الخاص .. والقروض الأجنبية تتميز بشروط سهلة لا يمكن أن تتحقق من خلال القروض العادية .. إنها توفر فترة سماح لا ترد خلالها شيئاً مما اقترضته لمدة خمس أو عشر سنوات .. كما أن فوائد هذه القروض بسيطة إلى حد لا يحسب حسابها .. وتساءلت .. لماذا لا تستغل أنت هذه القروض وتقيم بها مصنعا كبيرا رائعاً .. وبدلاً من أن تقتصر على جمع الحديد الخردة وبيعه تتطور بمشروعاتك إلى تصنيع هذا الحديد .. ولا شك أنك تعلم أن استغلال هذه القروض يجب أن يكون من داخل الدولة التى أقرضت .. أى أنك إذا أخذت من القروض الأمريكية فيجب أن تتعامل بما أخذته من داخل أمريكا .. أى أن يكون الاستيراد من أمريكا .. ولذلك سافرت إلى أمريكا .. لم أسافر لأرى والدتى كما ذكرت وإن كنت قد فرحت برؤيتها .. ولكنى سافرت

لأستكمل المشروع الذى تمكن من خيالى وأدرس مجالات الاستيراد من أمريكا .. وقد وصلت هناك إلى العجب .. إننا لا نستطيع أن نستورد الآلات فحسب .. ولكننا نستطيع أيضاً استيراد كتل من الحديد نصنعها هنا .. وقدرت أننا نستطيع أن نبدأ لو حصلنا من القروض الأجنبية ولو على عشرة ملايين دولار فقط ، وأنا واثقة أن لك من الاتصالات والنفوذ ما تستطيع أن تصل به إلى كل ما تقتنع به .. وقد أعددت كل ذلك فى دراسة مكتوبة سأضعها أمامك ..

وكان الحاج عبد الغفور يستمع إليها وهو دهش وإن كان لا يبدو عليه الاهتمام الشديد ، بينما نظيرة تستمع إليها كأنها تستمع إلى نصابة تبدأ عملية نصب .. وقال الحاج عبد الغفور من خلال ابتسامته الطيبة :

– إنك مدهشة .. رائعة .. كنت أتمنى أن تكون إحدى بناتى أو حتى أولادى فى مثل ذكائك ونشاطك ..

وقالت روزالين تتعجله متفائلة :

– ما رأيك فى المشروع ؟

وقال الحاج عبد الغفور وهو يبعد عنها عينيه :

– إنه مشروع رائع مضمون ولكنك جئت متأخرة .. فمنذ عام دخل صديقى بهنس فى مثل هذا المشروع واستطاع أن يأخذ لنفسه من القروض الأجنبية وبدأ فعلا فى إقامة أعمال جديدة وعندما سمعت بدأت أنا الآخر فى محاولة الحصول على نسبة من القروض مع شريك يفهم فى هذه العمليات .. ولم نأخذ من القروض الأمريكية ولكن من القروض اليابانية .. وقد تطلب الحصول على هذه القروض جهداً كبيراً ومتاعب

استمرت شهوراً طويلة .. ولا شك أنك تقدرين متاعب التعامل مع الحكومة والمبالغ الضخمة التى يكلفها هذا التعامل .. ورغم ذلك أقدمت بعد أن أقنعنى شريكى .. ولم نصل إلى استكمال المشروع إلا منذ شهر واحد ..

وصاحت روزالين كأنها تصرخ :

– إنى لم أعلم أنك دخلت فى مثل هذا المشروع ..

وقال الحاج عبد الغفور فى هدوء :

– إنك لم تسألينى قبل أن تبدئى فى مشروعك ..

قالت .. كأنها تبكى :

– إن زوجى عبد الوهاب لم يقل شيئاً ..

وقال الحاج عبد الغفور وهو يتنهد تنهيدة كأنه يزفر متاعبه :

– إن عبد الوهاب لا يعلم شيئاً عن أى شىء ..

وقالت فى حدة :

– أى أنك ترفض أن تأخذ منى هذا المشروع ..

وقال كأنه يواسيها :

– إنى لا أرفضه .. وأعلم أن عمولتك منه تصل إلى نسبة كبيرة تحقق لك ربحاً ضخماً .. ولكنى سبقتك إليه .. لا أستطيع أن أبدأ مشروعاً وقد بدأته فعلا ..

قالت ورأسها يسقط على صدرها :

– أى لا أمل ..

وقال أبى مشفقاً عليها :

– فكرى فى مشروع آخر وأنا مستعد للتعاون معك .. أو خذى هذا المشروع واعرضيه على أحد آخر .. وأنا معجب بك

إلى حد أنى لا أستطيع أن أصدق أن امرأة تستطيع أن تهب نفسها وتبذل كل هذا الجهد فى تحقيق مشروعات لرجال الأعمال .. بل إنى من دهشتى أحس أنك تظلمين نفسك .. فقد كنت أعتقد أن كل نساء العالم حتى فى أمريكا ليس لهن ما يشغلهن ويحقق لهن السعادة إلا البيت والأولاد ..

وقالت روزالين فى سخط :

– إنك تعيش أيامك .. إن كل نساء العالم يعملن فى كل المجالات التى كانت قاصرة على كل الرجال ..

ثم ابتسمت ابتسامة مسكينة كأنها تذكرت شيئاً واستطردت قائلة فى صوت خفيض كأنها تحادث نفسها :

– ما عدا صديقتى فوزية .. إنها رغم كل ما تعلمته ورغم كل الشهادات التى تحملها لا تحب أن تعمل ..

وقال أبى مبتسماً وهو يرفع اللبدة عن رأسه :

– ربما لأنها أعقل وأكثر واقعية من بقية النساء .. وأحب أن أقول لك كلمة .. إن رجل الأعمال لا ينجح أبدا من أول محاولة .. ولا الثانية .. ولا الثالثة .. إنه قد يفشل فى عشرات المحاولات إلى أن يوفق فى محاولة ويبدأ فى بناء مجده .. أنا نفسى فشلت فى محاولات كثيرة قبل أن يوفقنى الله .. هل تسمعين عن رجل الأعمال الرائع محمود عبده محمود الذى وصل إلى أنه أصبح يحكم كل مشروعات مصر .. لقد بدأ بالفشل .. فشل فى عمليات كثيرة منها عملية كان يريد أن يشركنى فيها ..

وقامت روزالين واقفة وقالت فى انهيار :

– عن إذنك .. أسعدت مساء ..

وسارت إلى غرفتها فى خطوة مترنحة كأن إحساسها بالفشل سيهدها ، وصاحت وراءها نظيرة وصيحتها فيها رنة الشماتة :

– العشاء ..

وقالت روزالين ساخطة دون أن تنظر إليها :

– لن أتعشى ..

واختفت داخل غرفتها ، ولعلها بكت على صدر زوجها ..

●●●

وسكتت نظيرة وهى تتنهد كأنها تلتقط أنفاسها بعد أن حكت كل هذه الحكاية وأنا أسمعها غارقاً فى الدهشة والتعجب .. وقلت لها :

– لم أكن أعتقد أن هذه المرأة يمكن أن يصل بها طموحها إلى هذا الحد حتى ولو أنها أمريكية ..

وقالت نظيرة فى قرف كأنها تصحح معلوماتى :

– إنه ليس مجرد طموح .. إنه شذوذ .. إنها تعيش كل حياتها فى شذوذ .. لقد تركت عائلتها التى تتاجر فى الأحذية لتتعلم الطب .. وبعد أن تعلمت الطب تركت أمريكا كلها وجاءت إلى مصر لتعمل فى مكتب إحدى الشركات وتبيع أحذية حملتها معها من بلدها وتكشف على مرضى اللثة رغم أنها لا تستطيع أن تمارس الطب ، ثم تزوجت أخى لأنها عرفت أنه ابن رجل أعمال مليونير وقررت أن تمارس الأعمال .. امرأة غريبة شاذة .. وستبقى دائماً تعيش شذوذها .. وأنا لم أنته من حكايتها مع أخى بعد .. إنك لا تدرى ما حدث بعد ذلك ..

وتنهدت نظيرة فى أسى ثم استطردت قائلة :

– إنى فى الصباح فوجئت بأن رأيت روزالين تخرج من البيت وهى تحمل حقائبها .. وقد رأتنى ولكنها لم تقل لى كلمة واحدة ولا حتى كلمة صباح الخير .. ولم أقترب منها وجريت إلى أخى صائحة :

– أين تذهب زوجتك ..

وقال ورأسه منهار وعيناه تكادان تنطلقان بالدموع :

– ذهبت إلى فوزية ..

وقلت أتعجله ليفصح لى :

– متى تعود .. لقد خرجت وهى تحمل حقائبها ..

وقال كأنه يبكى :

– قد لا تعود ..

وصحت فى دهشة :

– لماذا لا تعود ..

وقال أخى وهو منهار :

– طلبت الطلاق ..

وصرخت :

– هل طلقتها ..

وقال وهو ساهم :

– لقد طلبت منها مهلة لأفكر ..

ثم انهار أخى راقداً على وجهه كأنه يبكى ولو أنى عندما جلست بجانبه أربت على كتفيه وجدته لا يبكى ولكنه فى حالة انهيار .. وبدأت أحس بالغيظ والغل يهرسان أعصابى .. كيف تتجرأ هذه المرأة على طلب الطلاق من أخى قبل أن يمر شهر ونصف الشهر على زواجهما .. أخذت أخى كأنها تتذوق طعمه

وعندما لم يعجبها طعمه تلقى به فى الشارع تحت أقدامها .. إن أخى يجب أن يعتز بشخصيته .. يجب أن يكون هو الذى يتحكم ويبقى عليها أو يلقيها .. كيف تكون هذه الأمريكية هى صاحبة الحق فى التحكم .. كل أمريكا بجلالة قدرها ليس لها الحق أن تتحكم فى أخى .. ولكن أخى منهار .. إنه يصدم بصدمة أخرى من صدمات الفشل .. لقد عاش الفشل طول حياته وقد يقضى عليه هذا الفشل الأخير .. لا .. لن يطلق روزالين .. وأحسست أنى لا أريد الطلاق لأنى أتخيل سعادة أخى معها ولكن لأنى لا أريد أن تفرض عليه إرادتها .. سيعود بها إلى البيت ويبقى معها شهوراً أو أكثر أو أقل ثم يكون هو الذى يفرض إرادته عليها .. هو الذى يطلقها ليست هى التى تطلقه .. ولكن .. كيف يستطيع أن يعود بها إلى البيت .. وفكرت .. وفكرت .. ثم تركت أخى وخرجت أجرى من البيت .. وبدلا من أن أذهب إلى الجامعة ذهبت إلى أبى فى مكتبه .. وفوجىء أبى بى حتى خيل إليه أن مصيبة قد وقعت لنا فإن أحداً منا لا يذهب أبداً إليه فى مكتبه .. ولكنك تعلم أنى أكثر إخوتى جرأة عليه وصراحة معه ، لذلك استطعت أن أتجرأ على الذهاب إليه فى مكتبه .. وقال أبى وقد صدمته المفاجأة :

– ماذا حدث ؟

وقلت وأنا أجلس على المقعد بجانبه قبل أن أحييه أو أستأذنه وأبتسم له ابتسامة تخفف عنه وقع المفاجأة :

– لا شىء .. ولكنها ليست مجرد زيارة ..

قال وقد بدأ يستريح :

– خيراً .. ماذا وراءك ؟

قلت وأنا أقرب وجهى منه وأنظر إليه فى استجداء :

– أخى عبد الوهاب فى أزمة .. ويجب أن ننقذه ..

قال وقد ازداد اطمئناناً وارتاح أكثر كأن أى موضوع لعبد الوهاب لا يهمه :

– إنه فى أزمة مستمرة .. ما هى آخر أزماته ؟

قلت كأنى أنعى عزيزاً :

– إن زوجته تطلب الطلاق وهو لا يحتمل الطلاق ..

قال فى حدة :

– ليطلقها أو لا يطلقها هذا لا دخل لى فيه ..

قلت بلهجة الاستجداء :

– حضرتك تعلم لماذا تريد زوجته الطلاق .. لأن حضرتك لم تعطها فرصة للعمل معك .. وأنا واثقة أنها لو عملت فى مكتبك كسكرتيرة أو مترجمة أو مستشارة فستعدل عن طلب الطلاق . فما رأيك يا بابا لو وضعتها عندك فى أى وظيفة ..

وصاح بابا :

– مستحيل .. إن شكلها لا يريحنى ولا يطمئننى على أن أعهد إليها بأى عمل ..

وقلت وأنا أتظاهر بأنى أكاد أبكى :

– لقد رأيت عبد الوهاب بعد أن تركته زوجته .. إنه منهار انهياراً كاملاً .. لقد صدم بالفشل .. وحضرتك تعلم أنه كان دائماً فاشلاً .. وأخشى أن يقضى عليه هذا الفشل الجديد .. ثم إنى متأكدة أن هذا الزواج لن يستمر ولكننا لو عينا روزالين فى وظيفة فإننا نمد فى أجله فترة ثم يقع الطلاق بعد أن يكون عبد الوهاب أقوى على احتماله ..

واعتدل أبى فى جلسته وقال وكأنه يلقى علىّ محاضرة :

– يا ابنتى .. ما هو الزواج .. هو أن يستطيع رجل وامرأة أن يعطى كل منهما ما يريده الآخر .. لقد تزوجت أنا وأنا أريد من أمك أن تفتح لى بيتاً وأن تعد لى الطعام وأن تنجب لى الأطفال ، وكانت هى لا تريد إلا الستر والأمان والبيت والأمومة .. لهذا وفقنا فى الزواج واحتملتنى كثيراً واحتملتها .. أما عبد الوهاب وزوجته فلم يستطع كل منهما أن يحقق ما يريده الآخر .. لقد أخطأ منذ البداية فى فهم وتقدير كل منهما للآخر .. إن هذه الأمريكية تزوجته لأنها اعتقدت أنها تستطيع أن تستغل أباه .. تستغلنى .. وهو تزوجها لأنه يريد أن يكون كأخيه عبد السلام .. يتزوج أمريكية كما تزوج أخوه إنجليزية لعله يصل إلى تكوين نفسه ولكن الأمريكية لم تفتح له الأمل .. إنى خمنت هذا منذ اليوم الأول الذى سمعت فيه بهذا الزواج ولهذا يجب أن ينتهى هذا الزواج .. أن يقع الطلاق واليوم أفضل من الغد ..

وقلت له فى توسل :

– يا بابا افهمنى .. أنا لا أريد أن يستمر هذا الزواج ولكنى أريد أن يكون عبد الوهاب هو الذى يطلق وليست هى التى تطلقه .. هذا أشرف له وأشرف للعائلة .. وسمعة أخى من سمعة العائلة .. ستعود إليه الآن بعد أن تفرح بالعمل معك وأنا واثقة أنه بعد شهور وربما أسابيع سيطلقها عبد الوهاب .. هو الذى يطلقها .. وأنا أضمن لك هذا .. وبعد الطلاق ستطردها أنت طبعاً من العمل ..

وصاح أبى :

– لا يمكن .. مستحيل .. هـذا كلام نسوان ولعب عيال وأنا لا يمكـن أن ألوث نفـسـى بمثل هـذه التـحـايلات .. وطلاق عـبد الوهاب اليـوم لا يمس العائـلة .. ما دخل العـائلة فى كل هذا.. إنى أريد أن يتـحمل عـبـد الوهاب نتائج المحـاولات التى يجـريهـا حتى لو فـشلت كل تجـاربه .. وهذه تجـربة فـشلت فلنتـركـه يبـحث عن تجـربة أخـرى .. هذا ما أتبـعـه نحـوكم جـمـيـعاً .. ولا أريد مـن أحد من العـائلة أن يثـير أمـامى هذا الموضـــوع .. اتركــوه وحـــده .. وهو وحـظه ولا أقـــول هو وشطارته لأن نصيبى كان ابنـاً ليس شاطراً .. ومع السلامة .. أريد أن أتفرغ للعمل ..

وقالت نظيرة وهى تبدو وكأنها منهارة :

– وخرجت من عند أبى يائسة .. مغتاظة .. إنى لن أستطيع أسترد شرف أخى الذى حطمته هذه الأمريكية ..

ثم ألقت نظيـرة رأسهـا بين ذراعـيهـا وبكت .. بكت فعـلا بدموع متشنجة ..

والواقع أنى أنا الآخر أصبحت مـغتاظاً من هذه المرأة .. لماذا تطلب هذه الأمـريكية الطـلاق ما دام زوجـها سـاكتـاً على كل ما تفعله لـتحقيق طموحـها .. ساكتـاً على شذوذها .. وقررت بينى وبين نفسى أن أذهب لملاقاة صديقتـها فوزية .. صديقتى فوزية ..

واستقبلتنى فوزية بابتسامة خبيثة قائلة :

– أين أنت .. إنى أعرف من أخذك منا ..

وقلت ضاحكاً :

– من ؟

وفوجئت بها تقول ساخرة وبصراحة :

– نظيرة ..

وبلعت ريقي الذى اهتز داخل حلقي من المفاجأة وقلت :

– من دراك .. كيف عرفت ؟

قالت ضاحكة :

– إنى أعرف كل شيء خصوصاً ما يخص أصدقائي ..

وقلت وهى تجلسنى على المقعد وقد قررت أن أكون صريحاً معها :

– على كل حال لا يهمنى أن أحتفظ بنظيرة سراً لنفسى .. والواقع أنى جئت إليك لموضوع يهم نظيرة .. لماذا تريد صديقتك أمينة الطلاق من عبد الوهاب ..

واستعملت اسم أمينة لمراضاة فوزية ..

واختفت ابتسامة فوزية واعتدلت فى جلستها قائلة :

– هذا ما يجب أن يتم ..

وقلت وأنا أغالى فى ادعاء الدهشة :

– لماذا .. لقد كان يطاوعها فى كل ما تريده .. كان يتركها لعملها .. ويتركها تبيت معك .. وتركها تسافر وحدها .. فماذا تريد أكثر من ذلك حتى تطلب الطلاق ..

وقالت فى لهجة جادة كأنها هى المسئولة :

– لقد جاءت أمينة إلى مصر وقررت أن تقيم فيها لأنها أحست فيها بالأمان .. والمرأة عندما تتزوج وهى تريد الأمان فإنها تبحث عن رجل قوى مكافح يجاهد حتى يضمن لها أنه يستطيع أن يصونها ويؤمنها على حياتها ومستقبلها .. لقد اعتقدت أمينة أن عبد الوهاب رجل قوى .. هكذا خيل إليها ربما

لتدينـه .. ولكنها بعد أن بدأت تـعيش معـه اكتشـفت أنه رجل عاجز عاطل يعيش أوهامـه ولا يعيش الحياة .. وقد حاولت أن تقنعه بأن يعـمل مع أبيه .. ولكنه لم يقـتنع .. وحاولت هى أن تعمل مع أبيـه لعله يلحق بها فلم تستطع .. وحاولـت أكثر من ذلك .. حـاولت أن تكون وسـيطه لأبيه فى تحـقـيق مشـروع ضخم ففـشلت .. ووجدت نفسهـا ستعيش العـمر كله مع هذا العـاطل العاجـز .. تعـيش خائـفة لا تسـتطيع الاطمـئنان على حياتها ولا على أمنها ولا على متطلبات مـعيشتها .. فقررت أن تهرب من هذا الجو المخـيف .. وأن تطلب الطلاق .. ولها حق .. إن السعادة الزوجية لا تتـحقق للمرأة إلا مع زوج قوى مكافح عامل يحفر الصخور ليفتح أبواب المستقبل الزاهر ..

كانت تتكلم بحماس كأنها هى التى حرضتها على الطلاق ..

وقلت كأنى رافض كلامها :

– إن روزالين تعلم أن عـبد الـوهاب فى خلاف مع أبيـه .. وقد قال لها إنه مستعد أن يسافر معها إلى أمريكا ويعمل هناك ويقيم مـشروعاً ضخـماً وأنه يستطيع أن يأخذ مـعه إلى هناك رأس المال الكافى .. فلمـاذا لا تسـتجـيب لمشروعـات زوجهـا وطباعه وأحلامه ..

وقالت فوزية فى حدة كأنها تشتم عبد الوهاب :

– إنه يعلم أن أمـينة لا تريد أن تعود إلى أمريكـا بل لم تعد تستطيع .. وقـد سبق أن تقدم إليها خطاب كـانت تعلم أن كلا منهم يريد أن يسافر مـعها إلى أمريكا ويحـصل على الجنسية الأمريكيـة هناك بحكم الزواج من أمـريكية .. فكانت ترفـضـهم فـوراً .. ولكن خدعـها عـبد الوهاب ولم يقل لـهـا شيـئاً قـبل

الزواج .. إن من طبيعته الصمت الطويل ، وكانت تعتقد أن صمته هو دليل عبقريته إلى أن خاب أملها فيه ..

وقلت كأنى أتحداها وأرد على اتهامها لعبد الوهاب باتهام روزالين :

– لقد قيل إنها تزوجته لأنها كانت طامعة فى أموال أبيه الحاج عبد الغفور ..

وصاحت فوزية :

– إنه ليس طمعاً ولكنها حاولت أن تعيش بالحق الذى يكفله لها الواقع .. إن أموال عبد الغفور هى أموال ابنه عبد الوهاب وبالتالى أموال زوجة ابنه .. ومن حق ابنه وحق زوجته أن يتدخلا فى كل هذه الأموال ويفهما كل قرش فيها حتى يستطيعا الاستمرار من بعده .. إن هذه الأموال والمصانع والشركات ستكون لهما ولأولادهما من بعد وفاة الحاج .. فكيف لا يعيشان ويعملان فيها حتى يضمنا المستقبل ، وحتى يخلد اسم عبد الغفور بعد موته واسم شركاته ومصانعه بل واسم أمواله .. هذا ليس طمعاً ولكنها مسئولية .. مسئولية الوراثة .. ولكنها لم تستطع أن تحس بهذه المسئولية .. زوجها لا يعمل وهى لا تستطيع أن تعمل ..

كانت تتكلم بحماس صارخ عن روزالين دفاعاً عنها ..

وقلت وأنا فى يأس :

– هل هناك أمل فى أن تعود إليه ..

وقالت فى حدة كأنها هى التى اتخذت القرار :

– لا .. لن تعود وأنا لا أتمنى لها أن تعود ..

وسمعت المفتاح يدور فى قفل باب الدخول ودخلت روزالين .. ونظرت إليها كأنى أنظر إلى إنسانة أخرى .. ليست

الإنسانة الغريبة الشاذة إنما أراها إنسانة قاسية تحقق طموحها بقسوتها .. وقلت لها بعد أن صافحتها باللغة الإنجليزية كأنى لا أريد أن أسمعها وهى تتكلم بلهجتها العربية المكسرة :

– هل أستطيع أن أتحدث إليك ؟

وقالت وهى تصافحنى ببرود وبالإنجليزية أيضاً :

– إذا كنت ستحدثنى عن الطلاق الذى أريده من عبد الوهاب فلا داع ..

قلت وأنا أتعمد أن أنظر إليها فى احتقار :

– فعلا .. إنى أريد أن أحدثك عن هذا الطلاق الذى تريدينه..

وقالت بعصبية :

– إذن .. لا داع ..

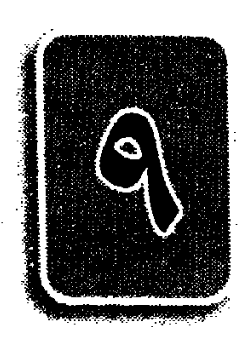
وتركتنى دون أن تودعنى بكلمة وجرت إلى داخل البيت وفوزية تنظر إلىّ كأنها شامتة فى خيبة أملى ..

وخرجت وأنا مقتنع بأن عبد الوهاب يجب أن يطلق فعلا دون البحث عن الأسباب .. لأن هذه المرأة لا تستحق الزواج .. والسؤال القديم عاد يتردد فى رأسى .. ترى ما الذى يجمع بين روزالين وفوزية ويربط الواحدة بالأخرى كل هذا الرباط.. إن كلاماً كثيراً يتردد حول علاقتهما .. امرأتان فى حالة حب إحداهما بالأخرى .. ورغم ذلك فإنى لا أستطيع أن أصدق ..

وقد نقلت كل ما جرى من كلام بينى وبين فوزية إلى نظيرة .. وقالت نظيرة فى غل وغيظ بعد أن بقيت صامتة طويلاً :

– لك حق .. سأحرض أخى على توقيع الطلاق .. إن هذا الزواج يعيبه ويعيب العائلة أكثر مما يعيبنا الطلاق حتى لو كان بناء على طلبها ..

وتم الطلاق ..



أصبحت نظيرة منذ تم طلاق أخيها من زوجته الأمريكية وهى فى حالة شاذة .. إنها تبدو فى حالة عصبية عنيفة دائمة .. وهى تجلس معى ساهمة أحياناً .. وأحياناً تتكلم كلاماً غريباً كأنها ثائرة علىّ .. كأنها أصبحت تخافنى أو تشك فى .. أو كأنها أصبحت تعتبر نفسها ضحية لى .. كأنها تحس أنها أصبحت تعطينى دون أن أستحق العطاء .. دون أن يحقق عطاؤها أى مستقبل لها .. بل إنها تغيرت حتى فى تصرفاتها .. فيأتى يوم لا تعد لى طعام الغداء كما عودتنى ثم فى يوم آخر تعده وكأنها عادت كما كانت .. وأحياناً كنت أطلب منها ونحن جالسان إلى المكتب .. هى تذاكر وأنا أعمل فى مشروعاتى .. أطلب منها أن تعد لى فنجان قهوة كما عودتنى .. فترد بسرعة :

– آسفه يا حسين .. أعد قهوتك لنفسك .. إنى تعبانة ..

وأقوم صاغراً لأعد القهوة لنفسى .. وحتى قبلاتها .. إنها أحياناً تقبلنى قبلة بكل إحساسها وكل حلاوتها .. وأحيانا

تعطيني شفتيها دون أن تقبلني .. وحتى وهي تذاكر .. إنها لا تلقي نفسها بين الكتب في حماس ومرح كما كانت دائماً .. إني ألاحظ أنها تفتح الكتب وتسرح بعيدا عنها .. وكانت أحيانا تغلق الكتاب وتعتذر لي بأنها تريد أن ترى والدتها ثم تغلق الكتاب وتخرج والساعة لم تصل إلى الخامسة بعد أن كانت لا تتركني قبل الثامنة .. وقد قلت لها مرة :

– ماذا بك .. إنك لست طبيعية ..

وقالت في صوت ضعيف :

– ليس بي شيء ..

وقلت مشفقاً عليها :

– إنك متغيرة وكأنك تعانين شيئاً تخفينه عليّ ..

وقالت في حدة وهي تنظر إليّ ثائرة :

– لا .. أبداً .. إني على طبيعتي فإما أن تتحمل هذه الطبيعة أو لا تتحملها ..

وسكت وأنا متأكد أنها ليست في حالة طبيعية .. ولم أكن دائماً أسكت .. كنت أحياناً أجادلها في عنف يصل إلى حد كأننا نتشاجر إلى أن كان يوم واتصلت بي نظيرة في التليفون وقالت لي إنها لن تستطيع أن تأتي إلى الشقة لأنها مريضة بالانفلونزا ..

ولم أصدقها .. لا شك أنها تدعي المرض لأنها لا تريد أن تراني واحترت ماذا أفعل .. ولم أفعل شيئاً .. وكانت كل يوم تتصل بي بالتليفون ومهما ألححت عليها فهي مصرة على أنها مريضة .. ومر أكثر من أسبوع وهي مصرة على أن تكون مريضة ..

وعدت أتردد على نادى الجزيرة كل يوم بعد الظهر وبعد أن تحادثني نظيرة في التليفون ، وفوجئت في أحد الأيام بصديقي طبيب الأسنان الدكتور عطا الله ومعه روزالين .. ودهشت .. ووقفت مذهولاً .. ما الذى جمع الدكتور عطا الله بروزالين .. ولم تكن روزالين ترتدى الثوب الإسلامي الذى ينسدل حتى يغطى قدميها ولا يكشف عن ذراعيها .. إنه الثوب الذى عادت به بعد سفرها إلى أمريكا والذى يرتفع إلى تحت ركبتها ويكشف عن ذراعيها وإن كان يغطى كتفيها .. إنها لم تعد إلى التطرف فى المظاهر الإسلامية ..

وناداني الدكتور عطا الله وبعد أن تصافحنا قدمني إلى روزالين في زهو كأنه يتفاخر :

– الدكتورة أمينة ..

ثم قال بعد أن رآني أبحلق فيها وأنا أصافحها :

– إنها دكتورة أمريكية مسلمة ..

وقلت وأنا أبتسم له ولها ابتسامة مفتعلة :

– لقد سبق أن التقينا وتعارفنا ..

وقال الدكتور عطا الله كأنه تذكر شيئاً حرمه من لذة المفاخرة ومفاجأتي بصديقته الأمريكية :

– صحيح .. لقد كانت زوجة لصديقك عبد الوهاب عبد الغفور ..

ثم استطرد مبتسماً ابتسامة ساخرة :

– ابن الحاج عبد الغفور البرعي مليونير وكالة البلح ..

وتوقف كأنه يتمتع بسخريته ثم استطرد قائلا :

– لقد حكت لى الدكتورة أمينة كل حياتها .. ولا شك أنك

تعلم أنها دكتورة متخصصة فى علاج اللثة .. وهى تعمل الآن معى فى عيادتى ..

وقلت هامساً فى دهشة :

– هل حصلت على إذن بممارسة الطب فى مصر ..

وقال الدكتور عطا الله وهو ينظر إلىّ كأنه يلومنى على هذا السؤال :

– إن من حقى أن أختار المساعدين فى العيادة .. وهى تساعدنى .. وقد استطاعت فى أيام قلائل أن تكسب ثقة كل مرضاى من المترددين .. بل أصبح هناك زبائن لا يأتون إلى العيادة إلا لها ..

ولم يطل الحديث بيننا الذى لم تشترك فيه روزالين ولا بكلمة واحدة .. هذه هى كما عرفتها .. لا تتكلم أبداً إلا إذا كانت وراء مشروع يتطلب منها الكلام .. وقد تركتهما منصرفاً وأنا فى دهشة من هذه السيدة .. إنها لا تكف عن المحاولة حتى لو فشلت .. وكانت آخر محاولة لها أن تكون سيدة أعمال عن طريق استغلال عبد الوهاب وأبيه الحاج عبد الغفور .. وفشلت .. وهى الآن تحاول أن تحترف ممارسة الطب عن طريق صديقها الجديد الدكتور عطا الله .. ومن يدرى .. لعلها تتزوجه هو الآخر .. وقد كان عبد الوهاب صادقاً فى حكمه على الفتاة الأوربية والأمريكية .. إنها لا تكف أبداً عن محاولة استكمال شخصيتها والاعتماد على نفسها واستغلال ذكائها .. ولا شك أن نظيرة ستدهش عندما تسمع هذه الأخبار الجديدة ..

ولكن نظيرة لم تحادثنى فى التليفون ..

مر يوم .. ويومان .. وثلاثة .. وأربعة .. وهي لا تتحدث .. وأنا أكاد أجن .. وقد حاولت أن أتصل بها أنا في التليفون فلم أستطع .. إني كلما اتصلت بها في تليفون البيت يقولون لي أنها ليست موجودة وكنت أتعمد أن أقول اسمي لمن يرد من أفراد العائلة كأني أتعمد أن أصارح بعلاقتنا وأفضحها .. وكنت أذهب كل يوم وأقف أمام باب الجامعة الأمريكية لعلي أراها خارجة .. ولكني لم أرها أبداً .. والجنون يكاد يعصف بي .. كيف تتصرف مع هذا التصرف .. حتى لو كانت قد قررت أن تنهي علاقتنا فكان يجب أن تقول لي وأنا نتفق معاً لا أن تطردني كالكلب الذي ضاقت به .. وكنت أقضي كل أوقات فراغي .. كل النهار وكل الليل .. وأنا أطوف في الشوارع وحول العمارة التي تقيم فيها كأني أبحث عنها .. إني أبحث عنها فعلا ..

وفي صباح اليوم الخامس فوجئت بنظيرة تتصل بي بالتليفون وتقول في صوت سريع كأنه لم يحدث بيننا ما يستحق الكلام :

– حسين .. سأكون هناك اليوم .. في بيتنا .. مع السلامة وإلى اللقاء ..

وألقت سماعة التليفون في وجهي دون أن تنتظر ردي عليها .. وتركتني ساعات وأنا أعاني غيظي وتوتر أعصابي .. وكنت في الشقة قبل أن تأتي بساعات إلى أن سمعت قفل الباب يتحرك ..

ودخلت .. يبدو عليها أنها متوترة الأعصاب .. وقبّلتني قبلة سريعة على خدي ثم ألقت نفسها على المقعد .. وقلت لها وأنا واقف في مواجهتها وعيناي تنطقان بالغيظ :

– أين كنت ؟

ونظرت نظيرة إلىّ وهى تبتسم ابتسامة مسكينة وقالت فى رجاء :

– حسين .. اجلس واهدأ ..

وجلست وأنا أحاول أن أبتسم لها ابتسامة ساخرة كأنى أتعمد أن أشعرها بأنى لا أبالى وقلت :

– جلست .. ماذا ستقولين ..

وسكتت برهة وهى تتنهد كأنها تزفر آلامها ثم قالت فى صوت خفيض :

– حسين .. سأتزوج ..

وصحت فى فزع :

– تتزوجين من ؟

وقالت وهى تبتسم ابتسامة ضعيفة وتنظر إلىّ ثم تعود وتبعد نظراتها عنى :

– أنت طبعاً ..

واسترحت بمجرد أن قالت هذه الكلمة وتنهدت كأنى أطلق أنفاسى حمداً لله ، ثم عدت أقول فى دهشة :

– لماذا .. لقد كنت ترفضين الزواج ..

قالت فى هدوء دون أن تنظر إلىّ :

– لأنى قررت الزواج .. سنتزوج حتى قبل أن أنتهى من الجامعة ..

وقلت وأنا أستعيد كل غرورى وثقتى بنفسى :

– ما الذى دفعك إلى هذا القرار .. رغم أنى ألح عليك منذ شهور .. وبعد أن ابتعدت عنى كل هذه الأيام وادعيت المرض .. ثم انقطعت حتى عن محادثتى فى التليفون ..

وألقت رأسها بين كفيها برهة ثم رفعته وقالت وهى تتكلم بصوت خفيض هادىء وتنظر إلىّ بكل عينيها :

– حسين .. أنت تعرف عقدتى .. العقدة التى أعانيها طول حياتى .. العقدة التى بذرت فى نفسيتى لأنى ابنة الحاج عبد الغفور المليونير .. ثم كان طلاق أخى من روزالين .. إن الطلاق وقع كأثر للعقدة التى نعانيها كلنا .. العقدة التى تحطم كل زيجاتنا حتى لو كان أخى قد تزوج من أمريكية .. وحطمنى طلاق أخى .. اشتد ضغط عقدتى على نفسيتى حتى نقلتنى إلى هاوية اليأس .. لن أتزوج أبدا .. أختى الكبيرة تزوجت وفشلت فى زواجها بسبب العقدة التى بذرها أبى .. وأختى الثانية طلقت وتعذبت لنفس السبب .. وأختى الثالثة نفيسة تنازلت عن كل شخصيتها هى وزوجها وعاشا زواجهما عبدين خادمين لأبى .. وأخى الأكبر هاجر إلى انجلترا هرباً من عقدته النفسية وربما لا تعلم زوجته هناك أى شىء عن أبيه .. وها هو أخى الأصغر اضطر أن يطلق وهو يتعذب رغم أنه تزوج أمريكية .. وربما اختارها أمريكية ظناً منه أن عقدة أبى لن تؤثر على زواجه بها كما لو تزوج مصرية .. وأنا .. ما الذى يميزنى عن إخوتى .. وأنت ما الذى يميزك عن بقية الأزواج .. وأحسست كأن صراخاً حاداً ينطلق فى صدرى .. لا .. لن أتزوج أبدا .. لو أنهيت دراستى وكونت شخصية خاصة بى فلن أتخلص أبدا من شخصية أبى .. لن أتخلص من العقدة .. وإذا تزوجت فسأتعذب وأطلق حتى لو تزوجتك أنت .. ولكنى كنت أعود ويهدأ الصراخ فى صدرى وأحس كأنى إذا استسلمت لعقدتى ولم أتزوج فكأنى أضحى بنفسى وأحرم نفسى من طبيعة

الحياة لمجرد خوفى من أوهام .. ثم كيف أعيش إذا لم أتزوج .. هل أعيش عشيقة لك .. لا .. إنى لا أرضى أن أعيش محرومة .. بل كانت تمر عليّ لحظات أجد نفسى مقتنعة بالكلام الذى قالته لك صديقتك فوزية .. لماذا لا نعيش أنا وزوجى فى ثراء أبى حتى لو كان بخيلاً كما يقولون عنه .. إن كل ما يملكه من حقى ومن أملاكى .. بل إن ثراء أبى يضفى على أولاده وعليّ أنا نوعاً من الجمال .. لولا هذا الثراء لما كنت أعيش هذه الحياة التى أعيشها والتى تجعلنى أجمل من كل البنات .. ولأعتز وأفخر وأتباهى بأنى ابنة عبد الغفور البرعي التى يجرى وراءها كل الشبان حتى لو كانوا طامعين فى ثراء أبيها .. ولأقدم على التجربة دون خوف .. لأتزوج .. حتى لو فشلت فإن الفشل أرحم من الهرب .. والاستسلام أرحم من الحرمان .. كان كل هذا يدور فى خاطرى ثم لا يلبث الصراخ أن يعود ويرتفع فى صدرى .. لا .. لن أتزوج .. وقد قضيت هذه الأيام وأنا معذبة بحيرتى بين عقدتى ووحدتى .. ولعلك لاحظت أنى كنت آتى إليك وأنا فى حالة عصبية تشتد ساعة وتخف ساعة .. إلى أن وجدت نفسى أحاول أن أبتعد عنك فادعيت المرض ثم هربت منك وتعمدت ألا أحادثك فى التليفون ولا أترك لك وسيلة للوصول إليّ .. وكنت أتعذب واشتد عذابى إلى أن هدأ .. كأنه بركان أطلق حممه ثم استراح منها .. ووجدت نفسى أتخذ قراراً نهائياً كاملاً هادئاً بأن نتزوج ..

وقلت كأنى ألومها :

– كنت أعتقد أن الحب هو الذى يدفعك إلى الزواج وليس الهرب من عقدتك ..

وقالت وهي تميل نحوى وعيناها تقطران الحب :

– إن الحب هو الذى انتصر على عقدتى .. لولا حبك لما تعذبت كل هذا العذاب بأعاصير نفسيتى ..

وسكت ساهماً .. ووجدت نفسى أفكر فى الزواج كأنى متردد وكأنى لم أكن أتمنى هذا الزواج ولم يسبق أن ألححت عليها أن تتزوجنى .. وبسرعة تخلصت من هذا التردد .. إنى أحبها .. وأحبها كزوجة ..

وأمسكت بيدها بين يدى وقلت وأنا أحس بكل كلمة تصدر من كل قلبى :

– نظيرة .. إن كل ما كنت أقوله لك عن أبيك هو واقع أعيش فيه أنا أيضاً وأصابنى بعقدة نفسية .. إنى لا أحب أن يقول الناس أنى تزوجتك طمعاً فى ثراء أبيك .. ولا أسمح بأن يشعر هو نفسه بأنى أتزوجك بتأثير شخصيته وثرائه .. ولذلك عرضت عليك أن نتزوج دون أن نقول له أو نستأذنه وننتظر موافقته وبعد أن يعلم بزواجنا فليتصرف كما يريد حتى لو طردك وحرمك من الميراث .. وأنا ما زلت مصراً على ذلك ..

وقالت نظيرة وهى تبتسم وأصابعها تقفز فوق أصابعى وتضغط عليها :

– لا .. يجب أن نكون أقوى من أبى ونواجهه بحقيقتنا وسنتزوج سواء وافق أو لم يوافق ، وإن كنت واثقة من أنه سيوافق على زواجنا ..

قلت :

– وما أدراك ..

قالت وابتسامتها تتسع :

– هذه هى طبيعته .. إنه يترك كل بناته وأولاده يخطو كل منهم فى حياته الخطوات التى يريدها .. يترك كلاً منهم حراً ما دام ليس فى حريته ما يمسه أو يمس العائلة .. إنه يؤمن بأن الحياة تجارب فليجرب كل منهم حياته .. وهو سيعلم أنى أريد أن أتزوجك وإن كنت لا أعتبر زواجنا مجرد تجربة .. أبداً لا أنا ولا أنت يجرب كل منا زواجه بالآخر ..

وعدت أحس بالتردد ولكن نظيرة أقوى علىّ من ترددى وقلت بعد برهة صمت :

– إذا كان أبوك يجب أن يعلم فليعلم أن زواجنا لن يكون عادياً كزواج بقية الناس .. إنى مثلا لن أدفع له مهراً فإنى لا أحب أن أحس بأنى كأنى أضع نقودى فى بنك وأنتظر الأرباح من أموال أبيك .. ونظير ذلك لن أقبل منه أن يشترى لنا أى شىء لتجهيز بيتنا كما هى العادة ..

وصاحت نظيرة فى فرح :

– موافقة ..

وقلت فى صوت جاد كأنى أفرض إرادتى :

– وليعلم بابا أنى حتى لن أشترى شبكة ليقدر بها قيمة ثروتى ولتتباهى بها ماما وإخوتك أمام صديقاتهن .. وأنت تعلمين أنى لست بخيلا .. وتستطيعين أن تعتبرى أى هدية سبق أن أهديتها لك كأنها الشبكة .. إنى أريد أن أحس بأن زواجنا ليس مناسبة لتقديم هدية ولكنه استمرار لحبنا الذى نعيش فيه .. وكل ما معى سيكون معك نخصصه لمشروعنا الجديد وأنا واثق أنك لن تستغلى ما نملكه خارج المشروع إلا وأنت مطمئنة على المشروع نفسه .. إنه المشروع الذى كان لك

أنت الفضل فى أن أفكر فيه ..

وقفزت نظيرة تقبلنى قبلة سريعة وهى تقول :

– موافقة ..

وقلت وأنا أكثر غروراً بنفسى :

– ولن أبحث عن شقة لنقيم فيها بعد زواجنا .. ولن أقبل من أبيك أن يخصص لنا شقة فى إحدى عماراته أو يشترى أو يستأجر لنا شقة .. سنقيم فى هذه الشقة .. صحيح أنها قديمة وفى شارع مزدحم وفى وسط البلد .. إنه ليس شارعاً إنه حارة .. ولكنها الشقة التى التقينا فيها ونما حبنا بين جدرانها .. ونحن نعيش الحب حتى بعد الزواج .. ولا تنس أن ليس لدينا فى هذه الشقة إلا غرفة نوم واحدة ومعنى هذا أننا يجب أن نحرم أنفسنا من الأولاد حتى نستطيع بعد أن ننجح أن نجد بنجاحنا شقة أخرى ..

وهللت نظيرة :

– موافقة .. إنى لا أريد أن يكون لى أولاد إلا بعد أن أنتهى من الجامعة .. إنك موافق على استمرارى فى دراستى ..

قلت وأنا فرح بها :

– طبعاً .. مشروعاتنا فى حاجة إلى أن تنمى دراستك .. وأنا لست فى حاجة الآن إلى أن أكون أباً حتى أحتفظ بشبابى ..

وقالت وهى تقبلنى هذه القبلة السريعة :

– إنه شباب دائم ما دمنا معاً .. شبابك وشبابى ..

وشددتها إلىّ واستعدتها إلى صدرى وقبلتها قبلة تكاد لا تنتهى إلى أن شدت شفتيها المكتنزتين اللتين أحبهما من بين

شفتيّ .. وقالت وهى تلقي نفسها على مقعدها :

–متى ستقابل بابا ؟

وصمت فى حدة كأنى غضبت :

– لن أقابله .. لا أريد أن أحس أمامه بأنى شحاذ جاء يشحذ منه ابنته .. ماذا أقول له .. هل أقول إنى أريد أن أتزوج ابنته دون أن أدفع ولا مليم ولا حتى أن نقيم حفل زفاف لأن الحب هو زفاف خاص لا يحتاج إلى حفل يشهده الناس .. إننى لن أقابل أباك ولن يرى وجهى أو أرى وجهه إلا بعد أن يوافق فعلا على زواجنا وأذهب إليه كما أذهب إلى المأذون ..

وقالت : نظيرة كأنها تحادث نفسها وكأنها لا تدهش من أى كلام لى :

– سأعتمد على ماما لتبدأ الكلام مع بابا ..

وقد مرت أكثر من عشرة أيام ونظيرة تروى لى فى كل يوم ما يدور فى البيت من أحاديث .. إن أمها وافقت وأباها لا يزال يفكر ويبحث .. وكنا خلال هذه الأيام فى قمة السعادة .. نضحك ونمرح ونعمل .. ونظيرة تعطينى أكثر حتى أنى فى لحظة من اللحظات التى رفعتنى إلى قمة النشوة حاولت أن تكون هذه هى ساعة الدخلة .. ولكن نظيرة بمرحها استطاعت أن تهرب منى .. إنها بإيمانها ومعتقداتها لا تزال مصرة على ألا تكون الدخلة إلا بعد كتب الكتاب ..

إلى أن ذهبت يوماً إلى الشقة ووجدت نظيرة قد سبقتنى إلى هناك وما كادت ترانى حتى أطلقت زغرودة عالية .. زغرودة بلدى .. وأنا واقف أمامها مذهولاً أحس كأنى أريد أن ألتقط لسانها الذى يرقص داخل فمها المفتوح وهى تزغرد ..

وقالت ضاحكة بعد أن انتهت الزغرودة :

– إنى أزغرد للعريس .. لقد وافق بابا .. وهو فى انتظارك غداً ..

قلت فرحاً وكأن الفرحة تزغرد فى داخلى أنا الآخر :

– وسنكتب الكتاب ..

قالت ضاحكة :

– حرام عليك .. دعه يراك ويعرفك أولاً ولو ليوم واحد ..

قلت وأنا أميل عليها وأحتضنها وأضمها إلى صدرى بقوة :

– المهم لقد وصلنا وانتهينا وتزوجنا ..

وقالت وهى تنزع نفسها من بين أحضانى وتجرى إلى غرفة النوم مع ضحكتها :

– هذا بعدك .. سننتظر كتب الكتاب .. وأمامنا أيام .. والله حرام .. حرام أن ننتظر ولو أياماً ..

ثم وقفت تقبلنى ونحن واقفان بجانب الفراش ثم عادت إلى غرفة المكتب قائلة من خلال ضحكتها :

– دق الجرس .. لنبدأ المذاكرة ..

●●●

وذهبت فى اليوم التالى للقاء الحاج عبد الغفور البرعى وقد تعمدت أن أكون فى حالة رسمية مرتدياً حلتى الكاملة وجاداً متجهماً فى كل تحركاتى ، ولكنه استقبلنى بترحاب كبير وابتسامة تلمع عن شفتيه وتكلم قبل أن أتكلم قائلاً :

– لقد سمعت عنك كل ما يطمئنى بل كل ما يشرفنى لنكون عائلة واحدة .. إن الزواج الذى أتمناه لبناتى هو الزواج الذى يقوم على أن يحقق كل من الزوجين ما يريده الآخر .. وأنا

واثق أنك ستحقق لنظيرة كل ما تريده منك .. إنها صغرى بناتي وأعزهن لديّ وأعتقد أنها أذكاهن .. وعلى بركة الله ..

قلت وأنا لا أزال في حالتي الرسمية :

– وفقنا الله ببركة دعواتك ..

وقال ضاحكاً وترن ضحكته في أذني كأنها ضحكة نظيرة :

– هل تريد أن تعرف أكثر ما أعجبني فيك .. إنه ما قالوه لي أنك لا تريد حفل زفاف ..

قلت وأنا جاد :

– إني لست مقتنعاً بحفلات الزفاف .. يكفي أفراد العائلتين كشهود ..

واستمر الحديث بيننا إلى أن تحررت قليلاً من إحساسي بصفتي الرسمية ثم قال لي ، ولا أدري هل كانَ يختبرني أم كان صادقاً :

– هل تفضل التفرغ للعمل في الشركة الهندسية التي تعمل بها .. إني في حاجة إلى مهندس ..

قلت كأني أتباهى أمامه :

– إني لست متفرغاً للعمل في الشركة .. إني أعد مشروعاً خاصاً ..

وقال في حماس كأي رجل أعمال :

– أي مشروع ؟

قلت وأنا لا زلت متباهياً :

– إني على وشك أن أنتهي من رسم وإعداد بناء عمارة كبيرة .. اثنان وثلاثون من الأدوار .. وسأبيعها قبل أن أبدأ في بنائها .. وأقنعت الشركة التي أعمل بها أن تشترك في

المشروع .. وأنا كبير الأمل فى أن أجد المشترين ..

وقال فى حماس :

- سأشترى فى عمارتك عدداً من الأدوار ..

وقلت وأنا أتعمد أن أثبت له أنى فى غنى عنه :

- آسف .. لا أنا ولا زوجتى نظيرة سيكون لنا شيء فى هذه العمارة .. أفضل أن نكون أصحاب مشروعات لا ملاكاً ..

وقال كأنه دهش منى :

- ليست زوجتك التى تشترى .. أنا الذى أشترى ..

قلت كأنى أصدمه :

- إنك والد زوجتى .. أفضل ألا أعرض العائلة للمجازفة فى مشروع لم يتم بعد ..

قلتها كأنى أقول له إنى أرفض أمواله ..

ونظر إلىّ ساكتاً فى إعجاب واحترام كأنه تأكد أنى لا أتزوج ابنته طمعاً فى ماله وثرائه ..

وقد تم الزواج بعد أكثر من شهر فقد كانت نظيرة مصممة على أن تصنع ثوب العرس لنفسها .. وأن تعد استقبالاً خاصاً لعائلتى ساعة كتب الكتاب ، وأن تلتقط لنا صوراً فوتغرافية .. إن أكثر ما أعتز به هو هذه الصورة الفوتغرافية لنا نحن الاثنين وهى بثوب الزفاف وأنا أبدو رشيقاً فى حلتى التى أعددتها خصيصاً لهذه الساعة بعد إلحاح نظيرة ..

●●●

لقد مضى على زواجنا ثلاث سنوات ونحن فى قمة السعادة .. ونحن تقريباً متباعدان عن عائلتها وعائلتى وإن كان كل أفراد العائلتين معجبين بنا ، وأشدهم إعجاباً الحاج

عبد الغفور .. إنه يعرف أنى أقوى من أن أحتاج إليه .. ونقيم فى نفس الشقة القديمة ولو أننا بدأنا نبحث عن شقة أخرى واسعة لننجب أولادنا بعد أن نجح مشروع بناء العمارة وبدأت أعد لبناء عمارة أخرى .. ونظيرة تخرجت فى الجامعة الأمريكية وألححت عليها بأن تتفرغ للعمل معى إنى أعتمد عليها اعتماداً كاملاً فى كثير من الأبحاث والاتصالات التى أحتاج إليها .. وهى تبذل كل جهدها فى معاونتى وإن كانت لا تزال تحتفظ بما أحبه فيها وهى طبيعتها المتأصلة كامرأة بلدى ..

لا يثير الحساسية بيننا إلا عندما نتحدث أحياناً وفى فترات متباعدة عن الميراث .. ميراثها من أبيها الحاج عبد الغفور ..

إن نظيرة سترث إرثاً هائلاً يكفى لتغطية مشروعات ضخمة ..

ولكننا كلما تعرضنا لهذا الموضوع ننهيه بنكتة ..

ونضحك ..

وتذوب ضحكتى وأنا أفكر فى المشاريع الضخمة التى يمكن أن نحققها بعد أن ترث زوجتى نظيرة أباها الحاج عبد الغفور ..

رقم الإيداع ٨٥٨٥/ ٢٠٠٠
الترقيم الدولى
977 - 08 - 09241